تشريح أمريكا

انتحار السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط

د. سعيد اللاوندى



بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : تشريح أمريكا

المــــؤلف : د. سعيد اللاوندى

رقـم الإيداع : **2015/20455**

الطبعة الأولى ٢٠١٥



القاهرة : ٤ ميـدان حليـم خلـف بنـك فيصـل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت ٠٠٠٤٠٤٦ ٠١_٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

إهـــداء

إلى أصدقاء الزمن الجميل ..

- المهندس أحمد اللاوندى.
- العميد أ. ح عاطف عوف.
- العميد شرطة محمد رزق الشرقاوى.
- الأستاذ طارق شوشة

أهدى هذا الكتاب..

مقدمة

الغرب يغتال عقله!

من حق الغرب الذى تقوده وتتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية أن يزعم أنه حامى حمى الليبرالية والديمقراطية وحقوق الإنسان ومن حقنا نحن فى العالم(غير الغربي) أن نضع هذه المزاعم على المحك العملي.. ونكشف زيف كل ما يقال بشأن القلاع الحصينة التى شيدها الغربيون لحرية الفكر والتعبير.

والمؤلم أن ممارسات الغرب تجاه(الآخر) تتضاد شكلا وموضوعا مع أبسط قواعد الليبرالية، فها هى الولايات المتحدة التى تفرض نفسها سيدا على العالم ترفض أن يمثل جنودها أمام المحكمة الجنائية الدولية بدعوى أن ذلك ينتقص من حقوق الإنسان الأمريكي! لكنها فى ذات الوقت تزج بآلاف الأبرياء من مواطنى الدول الأخرى ـ دون محاكمة ـ فى سجون جوانتانامو ولا ترى أن فى هذه الإجراءات اعتداء على حرية الإنسان.. ياللمفارقة!!.

وعندما تحدثت الصحف العربية عن كتاب الخديعة الكبرى لمؤلفه الفرنسى تيرى ميسان الذى يكشف فيه بالأدلة الدامغة عن أن وكالة المخابرات الأمريكية لم تكن غائبة أو بعيدة عن تدبير أحداث ١١ سبتمبر قامت قيامة السفراء الأمريكيين فى البلدان العربية وبعث أحدهم – وهو سفير أمريكا فى مصر وقتئذ - بيانا نشرته الصحف إجبارا عما يجب أن ينشر أو لا ينشر ونسى الأمريكيون أنهم بهذا السلوك إنما يذبحون حرية التعبير وينتهكون عرضها عيانا جهارا.

وفى الوقت الذى يتشدق فيه الأمريكيون بعبارات حرية التعبير، وحرية الرأي، وحق الإنسان فى المعرفة يفرضون حصارا مميتا حول ما جرى فى أفغانستان وحرب

تورا بورا وما حدث فى العراق ويخفون حقائق تفقأ العيون حول مئات الآلاف من المدنيين العراقيين الذين سحقتهم الآلة العسكرية الأمريكية فى الفلوجة، والنجف، والبصرة، والرمادي. وغاب عن بالهم أن حرية التعبير بريئة من كل ممارساتهم، ثم ماذا نسمى استهداف مواقع الفضائيات التى كانت تغطى وقائع الاحتلال الأمريكى للعراق.. وإذا لم يكن سجن مراسل إحدى القنوات العربية فى مدريد واعتقال المصور الخاصة بها فى جوانتانامو ضربة فى عنق حرية الفكر واغتيالا حقيقيا لحرية التعبير، وتجسيدا حيا لازدواجية المعايير.. فماذا عساه يكون إذن! والذى يبعث على الحنق والغيظ خصوصا فى قضية الرسوم المسيئة للإسلام ولرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم) أن الغرب يزعم أنه إنما ينتصر لحرية الرأى مع أنه فى أحداث مشابهة يذبح حرية الرأى دون أن يبالي.

وعندما أبدت إسرائيل انزعاجها من نتيجة استطلاع الرأى الشهير الذى تبين منه أن٥٩٪ من الشعوب الأوروبية ترى أن إسرائيل بممارساتها العدوانية تمثل خطرا على الأمن والسلم الدوليين، لم تتردد المفوضية الأوروبية فى تقديم الاعتذار إلى حكومة إسرائيل. وعندما أصدر وزير التعليم العالى الفرنسى جايسو القانون الشهير الذى يجرم أى باحث أو كاتب يعالج(تلميحا أو تصريحا) قضية الهولوكوست لم يبك الباكون فى الغرب على حرية البحث العلمى التى أهدروا دمها.. ولم ينبس أحد ببنت شفه عندما سحبوا من الباحث روبير فوريسون وزميله هنرى لوك لقب دكتور وطردوهما من مواقعهما العلمية فى جامعتى ليون ونانت فى فرنسا عقابا لهما على أبحاثهما فى تاريخ اليهود. وكانت صحيفة لوموند الفرنسية قد مثلت أمام المحكمة بسبب بيان نشره المفكر الفرنسى روجيه جارودى يدين فيه مجزرة قانا ويجرم فاعليها.

كما رفعت جمعية اليكرا اليهودية فى فرنسا قضية على صحيفة الأهرام بسبب مقالة نشرتها على صفحاتها اعتبرها اليهود تمس مقدساتهم التاريخية.

الغريب أن الغربيين لم يعترضوا على ذلك، وأقروا جميع الإجراءات التى يتخذها اليهود ضد من تسول له نفسه أن يناقش (سرا وعلانية) أحداثهم التاريخية. ومرة أخرى نتساءل: أين حرية الرأى المسكينة من كل هذا؟!.. أم أن ما يتعلق باليهود يكون دائما فوق القوانين. أما ما يتعلق بالعرب والمسلمين فترسانة القواعد والقوانين لا يمكن تجاوزها. المؤسف أن وسط غبار هذه المعركة(معركة الرسوم) استيقظت نعرات كثيرة تحرض العالم الغربى على الإعلان عن حرب صليبية جديدة ضد الشرق العربى والإسلامي!

.. فى كل الأحوال لسنا من دعاة التحريض وقد يكون من المفيد كشف الحقائق ليتولى الغرب محاكمة نفسه(بقوانينه) قبل أن نبكى جميعا ـ فى ضوء الاحتقان العام ـ على اللبن المسكوب!.

عن انتحار السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط!

للإنصاف يجب أن نذكر أن العلاقات بين القاهرة وواشنطن لم تكن فى صحة جيدة يوما، فلقد تلقت مصر الصفعات تلو الصفعات فى زمن الرئيس المخلوع، فكلنا يذكر الزيارة الأخيرة التى قام بها الرئيس الأمريكى السابق جورج دبليو بوش إلى مصر وتحديدا إلى شرم الشيخ عندما هرع إلى سيارته مبارك فور هبوطه فى مطار شرم الشيخ الدولى فرفض أن يستقبله مبارك المخلوع وأعوانه.. وكانت إهانة ما بعدها إهانة، لكن أركان النظام السياسى السابق ابتلعتها على مضض ولم تلوى على شيء!!

أيا كان الأمر فإن القول ان المجلس العسكرى هو الذى صعّد الحال مع الولايات المتحدة هو قول فيه تجن لأن أمريكا جورج دبليو بوش لا تختلف عن أمريكا ـ أوباما ـ أما انسحاب البعثة العسكرية المصرية من أمريكا وإلغاؤها لقاءاتها التى كانت مقررة فى الكونجرس لم تكن إلا ماء باردا هبط على قلوب المصريين فقام بترطيبها.. وكان الكثيرون لا يشعرون بالراحة إجمالاً لأن العلاقات الأمريكية ـ

المصرية يجب أن تبنى على الاحترام والندية بعد أن لاحظ الكثيرون أنها كانت تميل كثيرا لمصلحة أمريكا.

والحق أن الدرس الأول الذى تقوله العلاقات الدولية هو أنه لا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة.. وإنما المصالح وحدها هى الدائمة ومن ثم كان طبيعيًا أن تخضع العلاقات بين مصر وأمريكا لهذا الدرس، أى أن العلاقة بين الدولتين ليست من أجل سواد عيون الشعب المصرى أو الشعب الأمريكى وإنما من أجل إرضاء الشعبين حقا.. ومن ثم فإن التلويح بقطع المعونة على نحو ما تفعل أمريكا أو الدعوة بمقاطعتها مصريا سوف تجر وبالأعلى الشعبين والدولتين معا.

فأولا: إن قيمة هذه المعونة هى مليار ونصف المليار دولار وهو مبلغ زهيد إذا ما قورن بالأموال التى سُرقت ونُهبت من مصر طوال الثلاثين عاما الماضية.. على أى حال هذا ما قالته السيدة آشتون مسؤولة العلاقات الخارجية بالاتحاد الأوروبى وقتئذ عندما صرحت بأن إجمالى ما تم نهبه من مصر طوال السنوات الماضية من قبل أعضاء الحزب الوطنى المنحل يبلغ ٥ تريليونات من الدولارات وأكدت أن مصر دولة غنية بثرواتها وأنها يمكن أن تساعد ثلث أوروبا!!

ثانيا: أمريكا تلوح بقطع المعونة وتنسى أن بنود اتفاقية كامب ديفيد تنص على أنها لابد أن تدفع هذه المعونة سنويا إلى مصر.. أى أنها جاءت ضمن النتائج النهائية لإنجاح الاتفاقية.. فإذا لوحت بقطعها اليوم ففى ذلك إخلال بالاتفاقية ومن حق الجانب المصرى أن يرى فى ذلك نهاية للاتفاقية ذاتها.

ثالثا: إننا نعلم أن المعونة الأمريكية لا تُقدم إلى مصر مجانا وإنما مقابل مواقف مصرية تتعلق بإسرائيل ـ الصديق الاستراتيجى الوحيد لأمريكا فى المنطقة ـ وعملية السلام، واستقرار الأمن والأمان فى منطقة الشرق الأوسط. وعبور سفن أمريكية من قناة السويس ليل نهار وهو ما يعنى أن قطع أمريكا لمعونتها عن مصر يجعلها تفقد كل هذه الامتيازات.. وظنى أن أمريكا وقادتها الحاليين أشد وعيًا من اقتراف مثل هذا الإثم العظيم!

رابعا: أن اصواتا مصرية عديدة كانت ولا تزال تنادى بالاستغناء عن هذه المعونة التى نعلم أنها تطلب بها خدمات ومواقف أضعاف ما تقدمه إلى مصر، ناهيك عن أن جزءا منها يتم تحويله ـ بأمر أمريكا ذاتها ـ إلى المجتمع الأهلى والجزء الثانى يعمل فيه أمريكيون برواتب خيالية تقررها أمريكا.

أما الجزء الثالث وقيمته١٧٪ فقط منها فيصل - بعد أن يعبث به العابثون من أصحاب الذمم الخربة إلى المواطن العادي.. ومن ثم فان الاستغناء عنها أصبح ضرورة غدا وبعد غد.

خامسا: إن الشعب المصرى بكل فئاته وطوائفه ـ قد مل هذه الوصاية التى تفرضها أمريكا عليه باسم المعونة! التى لا يصل منها إلا أقل القليل، لذلك فان طلب مصر بقطعها والاستغناء عنها أفضل كثيرا من استمرارها والتلويح أمريكيا بها.

سادسا: إن مبادرة الاستغناء التى رفعها أحد وجوه علماء الدين الوطنيين قد لاقت استحسانا من جانب عدد كبير من الشعب المصرى الذى تفاعل معها ودفع من قوت يومه لكى يحقق ذلك، ولست أنكر أن ذلك يعتبر استفتاء على المجلس العسكرى بالفعل لأنه أعطى تعليماته لبعثته بالعودة من أمريكا وإلغاء مواعيده فى الكونجرس اعتراضا على تلويح أمريكا بقطع المعونة.

سابعا: إن العلاقات المصرية ـ الأمريكية يجب أن تتحرر من كل من يحاول أن يلوثها.. ولاشك أن هذه المعونة وأعوانها فى أمريكا ومصر من الملوثات لهذه العلاقة التى يجب أن تُؤسس على الاحترام المتبادل.

كلمة أخرى: لقد آن أوان الاستغناء عن هذه المعونة وان تبدأ مصر بالاستغناء لكن علينا أن نعرف أن ذلك سوف يكلفنا مواقف أمريكية ـ وإسرائيلية معادية لنا فى المحافل الدولية مثل الأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى وحلف الناتو ومنظمة التجارة العالمية، أى أننا يجب أن نعد العدة لذلك منذ الآن فصاعدا.. وهذا من حقنا كدولة مستقلة فى قراراتها.

ثامنا: ليس من تك فى أن المعونة الأمريكية سيف مسلط على سيادة مصر، وهدفه تحجيم إرادة مصر، ومن ثم فإن رفضها أقرب، والاستغناء عنها أوجب مادامت أمريكا تلوى عنق الحقائق وتنظر فقط لهذه المعونة على أنها طوق نجاة لمصر والمصريين وتنسى أنها مادامت توجب على مصر التزامات فهى كذلك تلزم أمريكا بالتزامات أخري.

تاسعا: إننا لا نميل فى هذا التوقيب بالذات - إلى التصعيد مع أمريكا، وأعتقد جازما أنه ليس فى مصلحة أمريكا ذلك، بدليل أن ميزانية العام الجديد قد أقرت الحكومة الأمريكية ما سبق أن التزمت به وهو خاص بالمعونة لمصر.. لكن العلاقات، مع أمريكا يجب أن تكون على الوجه الأمثل، وأن يعرف الشعب المصرى دقائق هذه العلاقات ولعل ذلك ما تنحو إليه القيادة السياسية فى الآونة الأخيرة بمعنى أن هذه العلاقات كانت تتدثر فى أكاذيب وأوهام كثيرة برع النظام السياسى السابق فى نسجها وترويجها وكانت وسائل إعلامه المخادعة تتكفل بالباقي. إن هذه العلاقات فى حاجة إلى تقويم جديد، وأن يكون مفهوما أن لنا فيها مثل ما للآخرين وأن أمريكا هى دولة لها مصالح فى الشرق الأوسط، وأن إسرائيل المتاخمة لحدودنا التى وقعت معنا اتفاقية سلام (برعاية أمريكية) يهمها أن تكون علاقتنا بها طيبة، بمعنى آخر لسنا من أنصار التصعيد مع أمريكا، لأن قطع المعونة هو أضعف حلقة من حلقات هذه العلاقة، وإنما يجب أن نضع مصلحة مصر العليا فوق كل اعتبار. وأن ندرك أن أمريكا سوف نصادفها فى كل المحافل الدولية، ومن ثم فإن استعداءها لن يكون فى مصلحة مصر.

باختصار: لقد لوحت أمريكا بقطع المعونة فووجهت بإصرار شعبى على الاستغناء عنها شكلا وموضوعا، إن هذا يكفى فلقد بلغت الرسالة إلى قادة أمريكا - ومن ثم بات علينا أن نؤسس لعلاقات صحيحة مع أمريكا تقوم بالدرجة الأولى على الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة.

وأخيرًا ليس خافيا على أحد أن مصر اليوم تعيش تحديات مرحلة التحول الديمقراطى وهى مشغولة بترتيب البيت من الداخل ومن ثم ليس من الحنكة فتح جبهات جديدة. إذ يكفينا ما لدينا من جبهات داخلية وإقليمية، ناهيك عن مفاجأة المستجدات التى تهبط علينا بين وقت وآخر دون سابق إنذار!

باختصار: أمريكا قد لا تكون صديقا أو ملاكا لكن يجب ألا نوجد منها عدوا أو شيطانا مريدا.. فقط علينا أن نقوم بتشريحها لكى نفهم.

د. سعيد اللاوندى

حدائق الأهرام – القاهرة



القسم الأول

..عصر الأكاذيب الأمريكية الكبرى!

إنها السياسة.. ياغبي!

كان دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى السابق وأحد الصقور الجارحة فى إدارة جورج دبليو بوش يقول إنه يتفادى تناول قهوة الصباح مع زوجته لأنها كانت تسأله بشكل يومي: أين أسامة بن لادن!

تذكرت هذه الواقعة بينما كنت أقرأ التقرير الذى صدر عن الكونجرس الأمريكى ويُحمل رامسفيلد المسؤولية فى فشل الولايات المتحدة بالإمساك بأسامة بن لادن- الذى قيل إنهم قتلوه بعد ذلك!

ويذكر التقرير أن تقاعس رامسفيلد وقائد القوات الأمريكية فى أفغانستان عن زيادة عدد القوات الأمريكية فى هذا التوقيت(عام ٢٠٠١) هو الذى ساعد بن لادن فى الهرب من صحراء (تورا بورا) فى أفغانستان ليلجأ إلى المناطق الجبلية التى لا تخضع للسلطة الحكومية الباكستانية.

فى اعتقادى أن هذه الانتقادات ستكون مهمة لو جاءت فى إطار محاكمة الإدارة الأمريكية السابقة عما ارتكبته ليس فقط فى حق الأمريكيين بإضاعة أموالهم وقتل أولادهم ولكن أيضا فى حق الشعبين الأفغانى والعراقي.. فلقد قتلت الملايين من الشعبين كما هو معروف، ودمرت الدولتين تدميرا كاملًا وجعلت منحنى كراهية العالم لأمريكا يرتفع نحو السماء..

لكن يبدو لى أن هذا التقرير لم يصدر إلا لكى يدعم إرسال قوات أمريكية إضافية إلى أفغانستان.. بمعنى أنه صدر ليكون عونا للرئيس أوباما على اتخاذ قرار كان وعد بعكسه.. فكلنا يذكر أن الأجندة الانتخابية للرئيس أوباما كانت مُتخمة بالمحاذير ووعود كثيرة منها الانسحاب من أفغانستان والعراق، ووضع حل نهائى

للصراع العربى الإسرائيلي، وبناء علاقات متوازنة مع إيران وتركيا وباقى دول العالم انطلاقا من قاعدة أن العلاقات الدولية تتأسس على المصالح المشتركة والاحترام المتبادل..

لكن بعد مرور عدة أشهر من وصوله إلى مقعدة الرئاسى تنكر أوباما لكل ما سبق أن وعد به.. وأول هذه الوعود الانسحاب من أفغانستان .. ولذلك أرى أن هذا التقرير من الكونجرس لم يصدر (مجانا) ولوجه الحقيقة وإنما ليقدم الغدر لأوباما فى رجوعه مما سبق أن وعد به..

وكلنا يعلم أن أفغانستان عادت واحتلت المرتبة الأولى فى أجندة أوباما وإدارته، وكان لابد من إقناع الناخبين فى أمريكا بهذه العودة أو هذا التراجع. ومن ثم لا مناص من الارتكان إلى الكونجرس..

ماذا يعنى هذا الكلام! يعنى أننا أمام مشاهد مسرحية تلعب بعواطفنا ومشاعرنا، فتارة يتحدث أوباما عن أنه مُخلّص البشرية من أوجاعها.. وتارة أخرى نجده غارق حتى أذنيه فى مستنقع الأوحال كما كان فعل سابقه جورج دبليو بوش.. حقًا لقد تغيرت الأشكال والسياسة الأمريكية الاستعمارية واحدة.. ولذلك كان أهدهم على صواب عندما قال:

إنها السياسة يا غبي!

"الذئب"الأمريكي"والحملان"العربية.. "ألم ينته الدرس؟!

فى كل مرة أقرأ فيها تصريحًا (عربيا) تصعيديًا ضد إيران أجدنى أتمتم فى سرى قائلًا: إلى متى سيظل العرب سذجًا يبتلعون الطعم.. فإيران ليست عدوة لنا فلماذا كل هذا التجييش والعدوانية ضدها؟

واعترف أن هذا السؤال الذى يُلح على خاطري- ليل نهار- هو مُحصلة قناعة فؤادها أننا فى المنطقة العربية نأخذ مواقف لحساب غيرنا، فإيران منذ عدة عقود تعيش حالة استعداء كاملة ضد أمريكا، وربما لديها مبرراتها الخاصة، فإيران الثورة ليست هى إيران الشاه.. وكلنا يذكر أزمة الرهائن فى السفارة الأمريكية فى طهران والتى شغلت العالم لفترة طويلة.. ثم قائمة الاتهامات المطولة التى توجهها واشنطن- طوال الوقت- لطهران وكلها تدور حول أن إيران هى حاضنة الإرهاب ومموّلته فى آن واحد..

أريد أن أقول إن أسباب العداء متوفرة بين الجانبين، وليس هذا الحال بالنسبة للعرب والإيرانيين.. أما إذا أضفنا إسرائيل إلى المعادلة لاكتشفنا أن النيران مشتعلة بشكل مستمر بين تل أبيب وطهران، فالأولى ترى إيران رأس الشر فى منطقة الشرق الأوسط، بينما تذهب الثانية إلى أن إنقاذ المنطقة من القلاقل والاضطرابات لا يتأتى إلا بسحق إسرائيل أو إلقائها فى البحر!!

إذا كان ذلك كذلك، فالعرب لا ناقة لهم ولا جمل فى القضية برمتها سّيما إذا استعدنا إلى الأذهان علاقة الجوار شبه الهادئة مع إيران.. الدولة الإسلامية الكبرى، والقوة الإقليمية المهمة..

صحيح هناك مشكلات مثل مشكلة الجزر الثلاث الإماراتية:

طنب الكبرى، وطنب الصغرى، وأبو دوس، لكنها من ذلك النوع الذى يقبل الأخذ والرأى والتحكيم.. وهو أمر لا ترفضه فى كل الأحوال إيران..

المهم إذن هو السؤال التالي:

لماذا تنزلق بعض التيارات السياسية العربية وتتصرف من منطلق أن إيران عدوة لنا مع أنها ليست كذلك؟ الغريب أن هذه الأكذوبة تنطلى على بعض لتيارات مع أن استقراء جملة الوقائع القريبة والبعيدة يؤكد أن المستفيد من التوتر بين إيران والعرب هى أمريكا وإسرائيل.. ولعل ما ذكره زعيم المعارضة الإسرائيلية – فى ذلك الوقت – بنيامين نيتانياهو فى محاضرته الأخيرة بجامعة بارا يلان يؤكد ذلك بشكل مباشر.. فقوله إن إسرائيل استفادت كثيرا من واقعة الهجوم على البرجين التوأم والبنتاجون فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ يعنى أن تقسيم العالم إلى إرهابيين (ومن بينهم إيران والعرب من جانب) وضحايا ومن بينهم أمريكا والغرب وإسرائيل من جانب آخر قد صب فى النهاية فى صالح إسرائيل..

ومعلوم أن واشنطن قد وجهت اتهامها إلى صدر طهران برغم أنها تدعم تنظيم القاعدة وزعيمه أسامة بن لادن كما سبق أن وجهت نفس الاتهام إلى صدر صدام حسين..

ولئن كانت خاضت بنفسها حربها (الاحتلالية) ضد العراق وتكبدت فيها الخسائر الضخمة (عددًا وعتادا) فهى لا تريد أن تكرر خسائرها أو تضاعفها فى حرب تريدها بالفعل مع إيران لذلك تسعى جاهدة إلى تهيئة أجواء الحرب فى منطقة الشرق الأوسط وتوفير كافة العناصر لإشعالها، لكن بشرط أن يحترق بنيرانها العرب وليس الأمريكيين..

أعنى أن نية ضرب إيران قائمة لكن أداة التنفيذ هنا لن يكون المارينز الأمريكى كما حدث فى العراق وإنما المارينز العربى إن صح التعبير..

وكلنا بعلم أن أمنية إسرائيل هى أن تحترق إيران وكل الشيعة فى المنطقة، لذلك تكثّف كل جهودها الدبلوماسية والسياسية والعسكرية لدفع الدول العربية باتجاه التصادم مع إيران فزيارة السيدة ليفنى- وزيرة الخارجية الإسرائيلية وقتئذ لقطر ومشاركتها فى مؤتمر الديمقراطية والتنمية الذى انعقد فى الدوحة وحديثها- فى لقاءات عامة وخاصة- عن إيران باعتبارها الشيطان الذى يقض مضاجع الحكومات والشعوب فى المنطقة.. هى امتداد للزيارة التى كان قام بها إلى المنطقة الرئيس الأمريكى وتحدث فيها عن أبلسة طهران وتحميلها مسؤولية عدم الاستقرار بدعمها للإرهاب والإرهابيين..

وسوف تكون أيضا (مقدمة) للزيارة المرتقبة التى سيقوم بها الرئيس الأمريكى ثانية فى محاولة (إصرارية) على استعداء المنطقة العربية والدول الخليجية ضد إيران..

إذن الأطراف المتصارعة تتناور تحت الشمس وهي: أمريكا وإسرائيل وإيران.. ومن ثم لا فكاك.

من طرح السؤال: لماذا نتورط فى هذه الأزمة مع أننا لسنا طرفا فيها؟ ولماذا لم نستفد من الحرب العراقية- الإيرانية التى غرر فيها الأمريكان بصدام حسين وأقنعوه بأن عليه أن "يتغذى بإيران قبل أن تتعشى هى به" فكانت النتيجة حربًا بلا هوادة استمرت نحو ثمانى سنوات خسر فيها الطرفان العراقى والإيرانى الكثير..

وكأنى أرى بأم رأسى أن هذه الوقائع تتكرر بتخطيط أمريكى إسرائيلي. فإشعال الحرب ضد إيران فى المنطقة لن يربح منه غير الأمريكان والصهاينة كما ربحا من مؤامرة ضرب البرجين فى ١١ سبتمبر.

وعلى طريقة الأسئلة العنقودية أجدنى أقاوم سيلًا من الاستفسارات: لماذا لم نفطن بعد إلى مؤامرات أمريكا وإسرائيل. ولماذا نبتلع الطعم المّر ونظنه عسلًا مُصّفى، ولماذا ننجرف إلى حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل..

صحيح إن هناك توترا فى المنطقة، لابد أن نعترف بذلك- لكنه التوتر الناجم عن المجاذر الإسرائيلية وقتل واغتيال وتجويع الفلسطينيين.. والناجم أيضا عن زرع الفتن بين الأشقاء فى لبنان وسوريا- أما احتلال أمريكا الغاشم للعراق، فهو السبب الأكبر والمصيبة الأعظم فى آن.

ما قاله نيتانياهو عن أرباح إسرائيل الطائلة من وقوع أحداث ١١ سبتمبر بذكرنا بما سبق أن قاله الكاتب الفرنسى تيرى ميسان فى كتابة الشهير (الخديعة الكبرى) وهو أن هذا الحادث صناعة أمريكية، لخلق ذريعة لغزو العراق، والسيطرة على نفطه وماله ومقدراته كدولة قوية فى المنطقة.. وخلق المبرر لدخول إسرائيل فى ثوب (البيزنس) والتعمير، والتصويب والإنقاذ إلى بغداد وباقى المدن العراقية.. والأهم هو أن الإرهاب أصبح إكليشيهًا تختم به أمريكا (وإسرائيل) كل التحركات أو الاضطرابات..

فأسامة بن لادن هو الفزاعة التى يجب استخدامها لإلقاء الرعب فى قلب هذه الدولة، أو تلك..

أريد أن أقول- خلاصة- إن إيران دولة إسلامية وجارة لنا، ويمكن أن تتكفل آليات الحوار بفض أية منازعات حدودية معها..

وليس هناك مبرر لاستمرار مقاطعتها أو إعطائها ظهورنا وأجزم بأن المصلحة القومية للدول فرادى ومجتمعين تفرض مّد الأيدى نحوها..

وكفانا سذاجة عندما نستعدى الأصدقاء ونؤلب علينا المحايدين.. ولئن كان نفس منطق المصلحة يدفع بعض الدول فى المنطقة لفتح طرق دبلوماسية مع دولة محتلة لأراضينا العربية فى فلسطين (أقصد إسرائيل).. فكيف نعطل نفس المنطق مع دولة إقليمية بارزة بحجم إيران..

باختصار: أتمنى أن يبرأ العقل السياسى العربى من انغلاقه وسذاجته فما هو عدو لأمريكا وإسرائيل لا يجب أن يكون عدونا.. وليتنا نتعلم درس العراق فى زمن

صدام حسين الذى كان أكثر من حليف للغرب ثم التهمة الذئب عندما دعت الحاجة إلى ذلك.

إخوة العرب.. ألم ينته الدرس بعد؟!

بدعوى "نشر الديمقراطية" السفارات الأمريكية تدير شؤون ٤٥ دولة!

منذ الآن فصاعدا سوف تتحول السفارات الأمريكية فى نحو ٤٥ دولة إلى "مراكز قيادة" تحكم العالم وتدير شؤونه، وعلى الحكومات الوطنية فى هذه الدول أن تقبل هذا الحال، وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور لها..

هذا على كل حال ما يتضمنه مشروع القانون الأمريكى الذى يتبناه الكونجرس تحت عنوان "نشر الديمقراطية بحسب وجهة نظر الرئيس السابق جورج دبليو بوش الذى كان يرى أن لأمريكا رسالة تبشيرية وتنويرية وديمقراطية لابد أن يقبلها العالم صاغرًا.

الغريب أن هذا القانون (الذى يُعد الأول من نوعه فى الاستعداد ومصادرة حق الآخر فى التعبير عن نفسه) ينص على أن تُسند آلية تنفيذ هذا القانون إلى السفارات الأمريكية التى سيكون من صلاحياتها أن تفتح أبوابها لعقد لقاءات مع ممثلى المجمع المدنى المؤيد للديمقراطية، وتكليف أعضاء السفارات الأمريكيين بإلقاء محاضرات فى الجامعات حول نشر الديمقراطية وترسيخ مبادئ حقوق الإنسان.. باعتبار أن السفارات تصبح- والحالة هذه- جزرا أو مراكز إشعاع للديمقراطية.

كما سيكون من اختصاص السفارات الأمريكية أن تفرز التحالفات مع التيارات الديمقراطية فى العالم للترويج بشكل أفضل لما يعرف "بالقيمّ المشتركة" وهى الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وسيادة القانون والمحقق أن هذا القانون يأتى فى إطار جملة القوانين التى تستهدف منها أمريكا إحكام قبضتها على العالم، وتبرير

تدخلاتها الدبلوماسية والعسكرية فى الدول التى تعتقد هى أنها "مارقة" ولا تقبل الانصياع والتبعية لساكن البيت الأبيض.

والمعروف أن الدبلوماسية الأمريكية تعمل منذ الولاية الأولى لبوش الأبن وفق خطة مزدوجة، طرفها الأول هو استخدام الإرهاب "كفزاعة" تخيف به كل الدول (وخصوصا الدول الحليفة فى أوروبا القديمة) لتضمن بذلك خضوعها التام لإرادتها، وسهولة تحقيق حشد دولي. فى القضايا الدولية الملتهبة..

ولاشك أن حرب العراق وما صاحبها من ملابسات قد وفرت المناخ الملائم الذى جعل "أوروبا" خاتمًا فى أصبع الإدارة الأمريكية أو جعل قادتها بحسب تعبير لوموند الفرنسية أشبه بوزراء فى الحكومة الأمريكية يأتمرون بأمرها.

ومن تجليات هذه الدبلوماسية أن أوروبا لم تر حرجا من أن تعلن قبولها- طواعية- دخول بيت الطاعة الأمريكي.

كما ظهر فى الكلمات المتبادلة تبين قادة أوروبا (فى بروكسل) والرئيس جورج دبليو بوش أثناء زيارة الأخير لعاصمة الاتحاد الأوروبي..

الطرف الثانى من هذه الخطة المزدوجة هو إخفاء الطموح (أو المطامع) الاستعمارية الأمريكية تحت ستار دعاوى نشر الديمقراطية فى العالم وكأن أمريكا "رسول" بعثته العناية الإلهية ليعلم شعوب الأرض كيف تكون الديمقراطية.

وغاب عن بال قادة أمريكا أن قانون نشر الديمقراطية (زائف) ولن ينطلى على شعوب العالم لأنها ديمقراطية مدججة بالسلاح (وقادمة على رأس دبابة) فضلًا عن أنها ملطخة بدماء الأبرياء والمعذبين فى أبو غريب بالعراق (جوانتانامو فى كوبا) فضلًا عن أن أحدًا فى العالم لا يقبل ديمقراطية المارينز الهابطة من علٍ بكلمة أخرى: إن قانون نشر الديمقراطية الذى يتحمس له ديمقراطيون وجمهوريون فى الكونجرس الأمريكى هو قانون سيئ السمعة لأنه يخفي- فى طياته- المشروع الامبريالى الخبيث المعروف باسم الشرق الأوسط الكبير، الذى بدأت حبات

مسبحتة نكر فى العراق، ثم ها هى تنتقل اليوم إلى سوريا فإيران، وبقية المنطقة الغريب أن أمريكا لا تقر القادة فى هذه الدول ال٤٥ التى يستهدفها القرار أى اهتمام، لأن درس نظام صدام حسين سوف يظل شاخصًا فى الأذهان لأحقاب زمنية متتابعة..

ولذلك أرادت بقرارها الخاص بمشروع نشر الديمقراطية أن تسحب البساط من تحت أقدامهم لتجعل من سفاراتها ودبلوماسييها "البديل الأقوى" لإدارة دفة الحكم فى هذه البلدان.

يبقى أن نذكر أن عملية نشر الديمقراطية فى العالم ليست إلا أكذوبة جديدة تروج لها الأبواق الدعائية الأمريكية أو المتأمركة فى منطقتنا العربية لتبييض وجه أمريكا المكلل بسواد الحقد والكراهية فى كل أنحاء العالم.. لكن هيهات!!

..إنها الاستخبارات يا!

فى زمن الرئيس الأمريكى الأسبق بيل كلينتون كان الشعار المرفوع- والذى يعكس التوجهات السياسية لأمريكا- هو: إنه الاقتصاد.. يا غبي! فى إشارة إلى إعطاء واشنطن أولوية قصوى لقضايا الاقتصاد، والتجارة..

أما حاليا وانطلاقا من أن لكل عصر مقولاته وأهدافه- فإن الشعار الذى كان رفعه المحافظون الجدد فى الولايات المتحدة وتكرسه الأحداث الدولية يوما بعد يوم فهو: إنها الاستخبارات.. يا غبي!

هذا ما تذكره- على كل حال- صحيفة لوموند الفرنسية فى تعليقها على اختيار ينجروبونتى سفير أمريكا السابق فى العراق رئيسًا لأجهزة المخابرات الخمسة عشر وقوله عند تسليمه مقاليد المنصب الجديد إنه قادر على أن يجعل هذه الأجهزة (جميعا) فى خدمة القرار السياسى الأمريكى (بما يوفره بالطبع من بيانات ومعلومات عن كل كبيرة وصغيرة فى العالم)..

والحق إن تعقد الحياة السياسية فى العالم، وتشابك- بل وتضارب فى أحايين كثيرة- المصالح بين الدول وامتلاك دول عديدة لأسلحة فتاكة، جعل التنافسية الدولية تتجه إلى حقل الاستخبارات انطلاقا من الإيمان بأن يملك المعلومة .. يملك العالم!

ولذلك اتجهت أمريكا- التى تريد أن تحتكر القرار الدولى فى القرن الحادى والعشرين- إلى التفوق فى هذه النقطة تحديدا، فاختارت قيادييها من المبرزين فى المسألة الأمنية والإستخبارية، وقامت بتوظيفهم فى المواقع السياسية المختلفة.. فجورج تينيت رئيس المخابرات الأمريكية السابق قام بعدة مهمات سياسية فى منطقة

الشرق الأوسط.. وكونداليزا رايس مهندسة السياسة الخارجية الأمريكية الحالية كانت تشغل- فى الولاية الأولى للرئيس بوش- موقع مستشارة "الأمن" القومي.. وأثنى عليها الرئيس بوش عند ترشيحها لتترأس وزارة الخارجية بقوله: إنها وطنية وغيورة، ولم تتدخر وسعًا فى توفير كافة "المعلومات" التى تساعد متخذى القرار فى البيت الأبيض.

إذن إنه عصر الاستخبارات (بامتياز). وكل الشواهد تدل على ذلك. فها هى واشنطن تعترف بأنها كانت أطلقت كتيبة من الجواسيس لاختراق إيران ومعرفة المواقع التى تتركز فيها مفاعلاتها النووية، ومحتويات هذه المفاعلات، ورسم خريطة دقيقة لهذه المواقع حتى يتسنى ضربها فى حال اعتماد الأسلوب العسكرى فى حسم الخلاف الأمريكي- الإيراني.

وتحدثت مجلة الإكسبريس الفرنسية عن "منهج الجوسسة" الذى تتبعه الإدارة الأمريكية فى تعاطيها مع الأزمات الدولية، وتعنى به منهج زرع الجواسيس فى كل مكان لالتقاط المعلومات (الأقرب إلى الدقة) وذكرت أنه يستهدف إضعاف الخصم، فكل معلومة صحيحة تصل عن الخصم- أى خصم-هى بمعنى ما انتقاص من قوته!

وقبل فترة صدر كتاب بالفرنسية بعنوان: (عين أمريكا) يكشف أن أجهزة الاستخبارات الأمريكية والإسرائيلية تعملان وفق إستراتيجية واحدة تستهدف- فى النهاية- معرفة كل شيء يدور داخل منطقة الشرق الأوسط- وذكر الكتاب الذى وضعه خبير سابق فى جهاز الC.I.A الأمريكى أن إسرائيل لجأت إلى ألمانيا لمساعدتها فى التعرف على الأماكن التى يتردد عليها الفدائيون الفلسطينيون للتخطيط وضرب العمق الإسرائيلي..وجرى الاتفاق بين إسرائيل وألمانيا كالتالي: أن تتبرع ألمانيا بأجهزة كومبيوتر للسلطة الفلسطينية شرط أن يتم استخدامها فى مكاتب تحصيل فواتير المياه والكهرباء فى الأراضى المحتلة.

وقد تم ذلك بالفعل بدعوى أن ألمانيا تشارك فى تحديث شبكات المياه والكهرباء.. لكن الهدف لم يكن إلا شيئا آخر هو معرفة أماكن اجتماعات الفدائيين التى تدل عليها الفواتير التى تتضمن أرقامًا استهلاكية ضخمة..

ومن خلال (تقنيات معينة) مدسوسة فى أجهزة الكومبيوتر تُنقل هذه البيانات إلى ألمانيا ثم إلى إسرائيل التى تباغت الفدائيين بضربات مفاجئة (ما كان يمكن أن تحدث لولا هذه المعلومات التى جاءتها بهذه الطريقة الاستخباراتية الدقيقة).

ولسنا فى حاجة أن نذهب إلى بعيد، فأمريكا التى لا تريد لها شريكا فى قيادة العالم اليوم، لم تتردد فى زرع جواسيس لها داخل مناطق عديدة فى أوروبا.. وفضيحة شبكة ايشلون" الشهيرة ليست بعيدة عن الأذهان والتى بمقتضاها ترصد واشنطن كافة الشركات وتتنصت على جميع المكالمات وتلتقط أغلب الاتصالات ثم تقوم بتبويبها وتصنيفها لتكون رصيدا إستراتيجيا لا عند الحاجة لها فى صراعها مع أوروبا التى تريد أن تزاحمها فى "كابينة" القيادة فى العالم..

يبقى أن نذكر أن ما حدث (ويحدث) فى لبنان لم يخرج عن دائرة الاستخبارات فرغم أن حادث اغتيال الحريرى قد زلزل- وما يزال- الأرض السياسية فى لبنان والمنطقة، إلا أنه- فى الأصل- ليس إلا عملًا استخباراتيًا ..

وما تنحية الرئيس السورى لرئيس جهاز المخابرات ليحل محله آخر شوكت إلا دليل قاطع على أن القراءة الصحيحة للأحداث السياسية فى المنطقة (والعالم) باتت قراءة استخباراتية (أمنية) بالضرورة.

وأخيرا هل يمكن أن تقول مع صحيفة لوفيجارو الفرنسية أن القرن الحادى والعشرين سيكون قرنا استخباراتيا وأن المنافسة بين الدول (الراغبة فى الهيمنة الإقليمية والدولية) لن تكون فى العتاد والأسلحة وإنما ستكون فى مجال الأجهزة الأمنية، ومراكز الأبحاث التى أصبحت تنتشر كالفطريات فى عصرنا الحالي..

أمريكا.. الإمبراطورية التى لا تعرف الكذب!!

لا لن أصدق يوما أن أمريكا أخطأت عندما أصدرت قرارها - بعد دخول بغداد - بحل جيش صدام حسين بكافة تشكيلاته.. فإن دولة بحجم الغوريلا الضخمة التى يبلغ وزنها ١٠ آلاف رطل!. وطموحها أن تتربع على عرش العالم وتمتد إمبراطوريتها لتشمل الدنيا بأسرها لا يمكن أن تخطئ بمعنى أن كل خطواتها مدروسة، ومخطط لنتائجها (الكبيرة والصغيرة) سلفًا..

فتسريح جيش صدام مقصود لذاته حتى لا تتكشف المؤامرات والخيانات التى جرت بين قياداته وفصائله من ناحية، وحتى يحمل كل جندى سلاحه معه وهو عائد إلى بيته ليستخدمه فى لحظات التوتر والاحتقان وما أكثرها لاحقًا.. وهو ما يحدث اليوم، فالتفجيرات التى تقع هنا" "وهناك".. والحصاد الدموى الذى يملأ الأرجاء هو النتيجة الطبيعية لوجود الأسلحة والقنابل حلالًا زلالًا فى أيدى الجميع..

وقبل فترة ذكرت التقارير أن هناك أكثر من خمس ملايين قطعة سلاح منتشرة بين فئات الشعب. وهى تمثل - والحالة هذه - العنصر الأهم فى الصراع الجارى فى العراق، فما دام السلاح متوفرا، فالقتل (وسفك الدماء) سيكون أمرًا مُستباحًا.. بل إن مناخ الحرب الأهلية سيكون على أهبة الاشتعال..

ولعل هذا ما كانت ترمى إليه واشنطن على وجه الخصوص - عندما قررت حل الجيش العراقي.. لأن الانفلات الأمنى المتوقع، والخوف من نشوب حرب أهلية بين طوائف الشعب الأساسية (السُنية والشيِّعية والكردية) سوف يدفعان بعض الأحزاب السياسية، بل وبعض دول الجوار فى المنطقة العربية لدعوة أمريكا إلى عدم سحب قواتها من العراق خوفا من انقلاب الوضع إلى "فوضى!" وهذا ما تم بالفعل

حيث حذرت أكثر من دولة عربية من حدوث السيناريو الأسوأ "في حال انسحاب قوات "المارينز" الأمريكية من العراق..

ولقد طربت واشنطن لسماع مثل هذه التحذيرات العربية واستخدمتها- إعلاميا- لتؤكد للرأى العام الأمريكى أنها ليست قوات احتلال، وإنما هى صمام أمان للشعبين العراقى والأمريكى معًا..

وهكذا تضاف "أكذوبة" أمريكية جديدة إلى الأكاذيب الأخرى التى تملأ الآذان، وتروجها الميديا الأمريكية (أو المتأمركة) ليل نهار حتى يختلط الأمر على الجميع ويظنونها حقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها!

بمعنى آخر لا يجب الاعتقاد بأن أمريكا (سيدة العالم!) قد فات عليها شيء، أو غمض على إدراكها أمر، أو أخطأت التقدير فى قضية، لأننا إذا علمنا- بحسب التقارير- أن خطة غزو العراق كانت معّدة سلفا قبل وقوع الحرب بنحو عامين، سيكون صعبًا علينا تصديق أنها أخطأت، أو أنها تريد أن تعتذر..

وتقفز إلى ذهنى الآن العبارة التى نطق بها الرئيس الأمريكى السابق جورج دبليو بوش والتى توعد فيها منطقة الشرق الأوسط "بحرب صليبية" ردًا على أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ التى اتهم فيها العرب بأنهم مدبروها، والقائمون عليها..

نذكر جميعا أن نفرًا من رجال مكتبه حاولوا تخفيف هذا الوعيد عندما هاجت وماجت دوائر وأوساط عربية لاستخدام بوش الابن كلمة "حرب صليبية" لما تعين من موروث عدائى بين الغرب والعرب، أو بين الإسلام والمسيحية فى العصور الغابرة..

ومجمل :القول إن الرئيس الأمريكى لم يخطئ وإنما تحدث عن أمور يشعر بها، ويحسب لها ألف حساب.. لأن التصريحات التى سبقت ذلك كانت تهديده للعالم أجمع وتخييره بين أن يقف إلى صف أمريكا وإلا فسيعتبر واقفا فى صف الإرهابيين.

إذن نحن أمام موقف أمريكى محدد ومعروف الأبعاد، فهو معادٍ للجميع ومستعد بالفعل لإعلان حرب صليبية عليهم فعلًا لا قولًا، ومن ثم حاجة إلى اعتذار..

والحق إن الاعتذار "كلمة لا يعرفها قاموس رجال السياسة الأمريكية، هذا ما قاله – على كل حال – جورج بوش الأب عندما كان نائبًا للرئيس الأمريكى فى عام ١٩٨٨، فى سياق إسقاط طائرة ركاب إيرانية بواسطة سفينة أمريكية مما أدوى بحياة ٢٩٠٠ شخصًا .. والشيء نفسه يمكن أن نلمسه من أقوال أحد صقور الإدارة الأمريكية فى إدارة جورج دبليو بوش الأولى وهو كولن باول..عندما سئل ذات عن عدد العراقيين الذين قتلوا فى حرب الخليج الثانية التى كان يشغل فيها منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة فأجاب (باول):

فى الواقع، إنه عدد لا أهتم به كثيرًا.

ولم يلق الجنرال (طيب القلب) بالًا لما فى إجابته من استخفاف وسخرية قد توغر صدور كل من يسمعها!!

إنها أمريكا التى تمتلئ جعبتها (بالغطرسة والأنانية) منذ زمن وكأنها ميراث يحملها الأمريكيون على ظهورهم وفوق أعناقهم.. فها هو الرئيس ريجان يعلق فى لا مبالاة على تصويت الأغلبية فى الأمم المتحدة على قرار يدين غزو أمريكا لجرينادا فى أمريكا اللاتينية فيقول فى تهكم:

يقولون إن ١٠٠ دولة فى الأمم المتحدة اعترضت على ما فعلناه فى جرينادا. ألا فليعلم الجميع أن هذا الخبر عندما بلغنى لم يحرك فى شعره، بل لم يكدر صفو إفطارى الصباحى الذى كنت أتهيأ لتناوله!!

إذن نحن أمام دولة تعرف ماذا تفعل، وماذا تقول إذا سئلت عن سلوك آتته. فهكذا كانت تردد مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية السابقة وترى أن العالم مُضطر أن يرضخ للإرادة الأمريكية، لأن أمريكا – من وجهة نظرها – هى الأمة الضرورة،

والبديل لها هو الفوضى..

وكانت تقول أيضا: إن أمريكا قد تتحاور فى بعض الأمور مع حلفائها، لكن فى ساعة الضرورة تتصرف بمفردها..!

وهذا معناه أننا أمام دولة كبرى (أو دولة عظمى) تُعد العدة لكل شيء، وتضع حسابات دقيقة لكل تصرف..

وبالتالى فأى حديث عن أخطاء أو اعتذارات.. لا معنى له اللهم إلا إذا كان من قبيل التمويه أو التعتيم وهذا- فى أفضل الظنون- هو ما تريده أمريكا، فالفيصل عندها ليس ما تقوله هى عن نفسها، ولكن ما يقوله الآخرون عنها، لذلك تدس بين وقت وآخر أنباء ليرددها الجميع وكأنها حقائق مع أنها ليست كذلك مثل ما يُقال عن أنها أخطأت بحل جيش صدام مع أنها لم تخطئ، وإنما سارت الأمور وفق مُخطط محتوم يخدم إستراتيجيتها الاستعمارية أولًا وأخيرًا.

وأمريكا تخاف أيضا!

سألت نفسى مرة: لماذا تهتم أمريكا- وهى القوة الأعظم فى عالم اليوم بإصدار صحف، وإطلاق إذاعات وفضائيات (باللغة العربية) هل- حقًا- لأنها صاحبة رسالة تنويرية كما كان يزعم الرئيس الأمريكى السابق جورج دبليو بوش فى أكثر من مناسبة. أم لأنها- من منطلق شعورها بالتسّيد والتميز تسعى إلى فرض رؤاها فرضا تارة باسم "العولمة" وتارة أخرى باسم "الكوكبة، ومنطق السوق الحرة!"

فى الواقع لم تجد هذه الإجابات المختلفة "صدى" فى نفسى ليس فقط لأنها غير مقنعة، ولكن أيضا لأن الاهتمام السياسى الأمريكي" بقضية التواصل شعبيا مع المنطقة العربية يتجاوز حدود الاهتمام العادي. وهو ما جعلنى أربط ذلك- رغما عني- بمسارين جديدين تشهدهما حركة الأحداث فى السياسة الدولية فى الآونة الأخيرة..

- **الأول** يتعلق بموجات الكراهية المتلاحقة لكل ما هو أمريكى والتى تجاوزت حدود المنطقة العربية لتصبح ظاهرة عالمية..

- **والثانى** ظهور حركة شعبية عالمية مناوئة للهيمنة الأمريكية كانت شرارتها الأولى فى "سياتل" ثم انتقلت لتغطى مدنا كثيرة فى العالم (مثل جنيف وبراج، وجنوة، وباريس وبكين، ومونتريال، وهانسبرج)..

وباتت المشاركة الأمريكية فى أى مؤتمر دولى (فى منظمة التجارة العالمية أو صندوق النقد الدولى أو البنك الدولى أو مجموعة ال٨ الكبار) تُصاحبها- بالضرورة- مظاهرات مناهضة "لعماية أمركة العالم"

المعروف أن هذه المظاهرات الرافضة (أو الكارهة) لمنطق "السيد والعبد" الذى تفرضه أمريكا على العالم يزداد عنفوانًا يوما بعد يوم فى ظل تنامى المنظمات الأهلية (غير الحكومية) وحركات المجتمع المدنى العالمي..

لذلك لم يتردد قادة أمريكا فى رصد ملايين الدولارات بهدف تحسين صورة أمريكا فأنشأت فى المنطقة العربية فضائية الحرة "وأطلقت راديو سوا" وأصدرت مجلة "هاي" وتدعم- فى الوقت ذاته صحفًا عديدة بمسميات مختلفة لكنها تشترك جميعا" فى الهوى الأمريكى الغلاّب.

المعنى المقصود أن أمريكا لا تخشى حكومات العالم قاطبة لأن القيود والضغوط، والاتفاقات الموقعة مع كل حكومة على حدة تجعلها تأمن شرها تماما خصوصا أن بقاء غالبية هذه الحكومات على مقاعد السلطة فى بلادها"مرهون" برضا وارتياح قلب "سيدة العالم" أما ما لا يؤمن بشرها حقًا فهى الشعوب التى يخشى أن تتحول بتأثير الكراهية والغضب- إلى جلمود صخر عاتٍ، يهبط فيهشم رأس الوحش الأمريكي..

الدكتوراه الأمريكية ب٣٠ ألف جنيه فى السوق المصرية!!

اتصل بى شخص عراقي- أعرفه منذ فترة- وقال مُعاتبًا: انتظرت أن تتصل بى لتهنئتى على حصولى على درجة الدكتوراه، فلم يحدث، فهل أغضبتك فى شيء ؟

قلت على الفور: أعوذ بالله، ولماذا أغضب منك يا أخي.. لكن قل لى بربك: متى حصلت على هذه الدرجة الميمونة "الدكتوراه" وما الجامعة التى منحتك إياها؟ فضحك مُحدثي، وقال وهو يبلع ريقه فرحًا منتشيا: لقد حصلت على درجة الدكتوراه من إحدى الجامعات الأمريكية..وأضاف: لعلك سوف تندهش لأنك تعلم أننى لا أجيد،"بل لا أعرف اللغة الإنجليزية بما يسمح لى أن أعد أطروحة بحثية بحروفها..

وعندما زاد فضولي، التقيت صديقى العراقى الذى يستوطن مصر منذ أكثر من عامين، وشرح لى تفاصيل هذه الفضيحة، قائلًا: جئت إلى القاهرة برفقة زوجتى لإعداد أطروحتين للدكتوراه فى جامعة القاهرة أو جامعة عين شمس، وكان الأمل يملؤنا والتفاؤل يُكحل أعيننا، القاهرة هى عاصمة الثقافة والفنون العربية "شاء الآخرون أم أبوا!" وجامعات مصر هى الجامعات الأعرق والأكثر شهرة، وتكتظ بالدراسين، الذين يأتونها من كل فج عميق.

فشاءت أقدارى أن التقى شخصًا حوّل مسارى وأخذ لى موعدًا مع شخص ملتح تبدو عليه ملامح الثراء والارتياح، ويركب سيارة فارهة.. ثم أوفدنى إلى شخص ثالث يلبس جلبابا قصيرا، ويطلق لحيته وشاربه فى غير اعتناء، وأخذ "الرجلان" يحدثانى عن جامعة "كذا" الأمريكية، التى تنظم محاضرات وتعقد الندوات، ويدير شؤونها فى مصر والشرق الأوسط مكتب ضخم، مُلحقة به مكتبة

كبيرة، تستقبل الباحثين وتوفر لهم المراجع والاتصالات، وتنظم لهم وقتهم وتأخذ لحسابهم "مواعيد" مع الأساتذة، الذين يشرفون على رسائل الدكتوراه التى تُكتب باللغة العربية!!

وأقسم لى محدثى بأنه ظل ينتظر طويلًا.. طويلًا المحاضرات، أو الندوات.. وأخذ يترقب اللحظة التى سيلتقى فيها الأساتذة، فلم يحدث شيء من ذلك، فرأى أن يعتمد على نفسه وأخذ يذهب إلى مكتبات القاهرة ومبارك، والإسكندرية.

وأوهمه الشخصان الملتحيان أن لجنة البحث العلمي ستعلن رأيها فى رسالته، ولكن بعد أن يدفع خمسة آلاف دولار جملة واحدة "أى حوالى ٣٠ ألف جنيه مصري".. وبعد أقل من أسبوع، أتوا له بروب جامعي - "صنع فى الصين!" وألبسوه إياه، ثم قام الشخصان برفقة ثالث بتصفيف لحيته وشعره، وفى أحد نوادى هيئة التدريس بجامعة مصرية، دارت مناقشة- أو ما يشبه المناقشة، ثم فوجئ صديقى بأن لجنة المناقشة- بحسب منطوق الحكم- منحته درجة الدكتوراه بتقدير امتياز.

والأخطر أن هذا الأمر حدث مع زوجته بعد أن دفعت المبلغ، ولا يزال يتكرر يوميًا، حتى يقال إن إحدى هذه الجامعات منحت الدكتوراه لنحو ١٢٠ شخصًا عربيًا مؤخرا. وهو ما نراه جريمة تنال من مصداقية مصر العلمية.. ألا يكفينا أن حامل الشهادة المصرية- فى الطب مثلا- يضطره صاحب العمل فى دول الخليج لأن يدخل امتحانًا للتأكد من أنه طبيب حقيقى وليس مزيفًا!!

ثم علمت ما هو أفدح وهو أن السوق العلمية المصرية توجد بها عدة جامعات أمريكية "صورية على الأرجح" تمنح درجاتها "الماجستير والدكتوراه" لمن يدفع!

وفى التحليل النهائى سيُقال إن مصر هى التى تمنح الدكتوراهات وليس أمريكا.

الغريب أن صديقى العراقى يتصور أنه أصبح بالفعل "دكتورا" وأن شهادته تتساوى مع شهادات الجامعة المصرية وأنها تسمح له بالعمل الأكاديمى فى مصر

والدول العربية.. أقسم بأننى أخذت أضرب كفا بكف، وأحوقل وأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وتذكرت الشيخ مصطفى عبد الرازق، الذى كتب أشطارًا من معاناته الاغترابية فى باريس، عندما كان يتلقى العلم فى جامعتها العريقة "السوربون" وكذلك عميد الأدب العربى فى الجزء الثالث من الأيام.. والسنهورى باشا، والدكاترة زكى مبارك، وكم تعذب هؤلاء فى معرفة اللغة الفرنسية وآدابها.. وقلت: ألا رحم الله الطهطاوي، الذى جدد واجتهد وعاد بفكر جديد وتراجم ومأثورات غيرت وجه مصر.

وعقدت مقارنة بين هذه القامات التى سبقتنا وبين هذه التفاهات التى تعيش بين ظهرانينا.

وقلت على سبيل الدعابة: إذا لم يذهب محمد إلى الجبل ذهب الجبل إليه وأعنى إذا لم يذهب الطلاب إلى جامعات أوروبا وأمريكا، ذهبت الجامعات إليهم.. إنها كارثة علمية.. "الدكتوراهات" أعلى درجة أكاديمية، دخلت سوق المزاد، وأصبحت تُباع بجميع العملات، والقائمون عليها تحوم حولهم الشبهات. كفانا إساءة لمصر، وسمعتها العلمية.. فالأمر جد خطير، وليت التعليم العالى "ووزيره" يضعون القضية تحت السيطرة قبل فوات الأوان!

.. إنه عصر الأكاذيب الأمريكية الكبرى!

لأمر ما تكون "وسائل الميديا" هى الهدف الإستراتيجى الأول الذى تضعه أى قوة انقلابية (فى أى دولة) فى اعتبارها بحيث يكون فرض السيطرة عليها على رأس أجندتها لأنها تعلم أن امتلاك "المعلومة" شيء مهم، والسيطرة على "حواس" الشعوب شرط أساسى لنجاح أى فكرة أو مخطط.

ولذلك تأتى "الدعاية" أو "الإعلام" أو "الميديا" ضمن أدوات السياسة الخارجية لأى دولة جنبًا إلى جنب مع الدبلوماسية والحرب.

وإذا تأملنا مجمل الأحداث الإقليمية والدولية القريبة وخصوصًا الحرب الأمريكية على العراق لوجدنا أن وسائل "الميديا" هى المتورط الأول فى هذه الحرب.

ولذلك تم فبركة أكاذيب عديدة شملت أسباب الحرب ونتائجها على السواء بهدف خدمة الفكر الإمبراطورى الأمريكى الذى يريد أن يسيطر على العالم من أقصاه إلى أدناه امتثالًا لمقولة مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية السابقة "العالم لنا.. العالم للأمريكان"!

والثابت اليوم أن هدف أمريكا من الحرب الضروس التى شنتها على العراق لم يكن إسقاط نظام صدام حسين أو نزع أسلحته للدمار الشامل، حسبما تروج أبواقها الدعائية والإعلامية بكل وسائل الميديا، وبشتى اللغات، وفى كل بقاع الأرض، لأن هدفًا "متواضعًا" كهذا ليس فى حاجة إلى تعبئة كل هذه الحشود والعتاد (ربع مليون جندى أمريكى وبريطاني) فى المنطقة، خصوصًا إذا علمنا أن لجان التفتيش الدولية أكدت أن العراق "خال" من أسلحة الدمار الشامل، ثم أن إسقاط نظام صدام

حسين هو أمر قد تحققه فرقة صغيرة فى زمن قصير ثم ينتهى الأمر..

لكن لأن الهدف كان هو احتلال العراق.. فكان لابد من تسويق الأكاذيب، وترويج الحجج والأعذار فى كل وسائل الميديا، لكسب الرأى العام الأمريكى والعالمى إلى صف الحرب.

وحول نفس المعنى يؤكد الخبراء الإستراتيجيون أن العراق لو كان يصدر "طماطم" أو "تفاحًا" لما كانت اهتمت به أمريكا لا من قريب ولا من بعيد، ولكن لأنه يصدر "النفط" ويتحكم بشكل أساسى فى أسعاره، فكان لابد من احتلاله، واستغلال ثرواته لتضخ القوة- فى النهاية- فى شرايين الدولة العظمى فى العالم.. فضلًا عن أمريكا – فعلًا لا قولًا – تتحكم فى هذه السلعة الإستراتيجية فى العالم (النفط).

والحقيقة التى لا ينكرها أحد هى أن رحيل صدام حسين هو جزء أساسى من خطة شاملة تستهدف تغيير أو "إعادة صياغة" منطقة الشرق الأوسط. فأمريكا المنتصرة فى الحرب الباردة (ثم فى حرب الخليج الثانية) رسمت موقفها السياسى فى منطقة الشرق الأوسط انطلاقا من هذه النجاحات.. والصورة المأمولة هي: أن تكون هناك سوريا ضعيفة، والالتفاف حول إيران لضمان الحدود الشمالية لإسرائيل، وإسقاط نظام صدام حسين لتحل محله قوة إستراتيجية قوامها تحالف تركى إسرائيلي.. وهذه الصورة مرهونة بتحرك أمريكى حاسم لاحتلال العراق.

وبالتالى رأت الإدارة الأمريكية أن وجود "عراق قوي" تحت قيادة صدام حسين هو أمر يشكل خطورة بالغة لكل المصالح الأمريكية فى المنطقة ليس فقط بسبب الأفعال التى يمكن أن يقوم بها ولكن أيضًا- وهذا هو الأهم- لأن بقاء صدام فى موقعه سيكون دليلًا على عدم قدرة أمريكا على متابعة سياساتها الطموح فى العالم..

ولم يغب عن بال قادة أمريكا أن الهدف الأسمى وهو احتلال العراق، يحتاج إلى جيش من الإعلاميين تكون مهمته التمهيد لهذا العمل بنشر الأكاذيب، وتزييف

الحقائق.. وكما يقول دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى بات يتعين على الصحافة ألا تكون لها مهمة أخرى غير ترويج الأكاذيب ويذكر أن هناك مكتبًا ملحقا بالبنتاجون يشرف عليه بنفسه مهمته الأساسية بث الأكاذيب المختلفة على الكوكب الأرضى قاطبة.

وهناك وحدة تعرف باسم "وحدة التأثير الإستراتيجي" ميزانيتها عشرات الملايين من الدولارات قامت بتوقيع عقد بحوالى ١٠٠ ألف دولار شهريًا مع شركة اتصال تعرف باسم "ريندون جروب" تعمل فى مواقع استشارية لعدد من دول الخليج وتتعاون مع جهاز المخابرات الC.I.A والمعارضة العراقية معًا.. وتتعامل هذه الشركة مع صحفيين وكتاب فى الشرق الأوسط، والعالم العربى وآسيا وأوروبا، فتعطيهم رسائل صحفية، وتعليقات وتمدهم بالمعلومات التى تتوافق مع أمنيات ورغبات الإدارة الأمريكية وتفعيل الخيارات الخاصة بالحرب والإستراتيجية الأمريكية فى بلادهم فى مقابل رواتب شهرية تصل إليهم بطرق خفية حتى لا يفتضح أمرهم ولضمان ولائهم وانحيازهم التام لكافة الطروحات الأمريكية.

ولقد أثير حديث حول هذه الوحدة (وحدة التأثير الإستراتيجي) بقدر ما يؤكد أنها ألغيت لكن رامسفيلد عاد ليؤكد أن إلغاءها تم (على الأوراق) لكنها لا تزال تمارس أنشطتها.

وكانت "لوس أنجلوس تايمز" تحدثت عن خطط احتكار المعلومات وأشارت إلى إدارة المعلومات الموجهة إلى العامة ورقابة المصادر الصحفية، والسيطرة على الرأى العام.. وذكرت أن هناك رسائل إعلامية تهدف إلى ترويج سوء الفهم.. وأوضحت أن وحدة التأثير الإستراتيجى تقوم بتسريب معلومات لكى تبتلعها الصحافة الأمريكية والعالمية لخدمة المصالح الأمريكية.

"أيا كان الأمر" ومهما كانت قوة الدعاية التى تبثها الولايات المتحدة، فالمحقق أن الحرب التى دارت رحاها فى العراق، لم يكن من هدف لها سوى احتلال هذا البلد العربي، ليكون نقطة انطلاق للمخطط الأمريكى الخاص بإعادة تشكيل منطقة

الشرق الأوسط واحتكار القرار الدولى لأطول مدة ممكنة والبقاء سيدة العالم بلا منازع!

كما أن ضمان أمن إسرائيل هو أحد الأهداف التى ترمى إليها أمريكا من وراء هذه الحرب.

بمعنى آخر: إن الحرب الأمريكية فى العراق هي- فى الواقع- كوكتيل حروب: حرب عسكرية، وحرب إعلامية، وحرب نفسية، يديرها البنتاجون خصوصًا عبر وحدة التأثير الإستراتيجى التى يقودها دونالد رامسفيد وزير الدفاع بنفسه ومهمتها تزييف الحقائق وتسريب المعلومات الكاذبة لكى تبتلعها الصحف الأمريكية والعالمية.

وما يحدث- بين وقت وآخر- من تضارب حول مصير أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى والشرائط المسجلة التى يقال إنهما يبعثان بها.. كل ذلك ليس إلا من قبيل الأخبار المزيفة التى يروجها البنتاجون عبر وحدة التأثير الإستراتيجي.

ولعل أخطر الحقائق التى تم تزييفها إعلاميا حتى كادت تصبح حقيقة راسخة مع "أنها فى الأصل" أكذوبة كبرى، هى حقيقة أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ وهل هى بالفعل من صنع أسامة بن لادن مؤسس تنظيم القاعدة.الإرهابي، أم أنها من فبركة المخابرات الأمريكية بكافة أنواعها؟

الراجح أنها من صنع الأخيرة (أى المخابرات) ولقد صدرت عشرات الكتب فى أوروبا وأمريكا ترجح هذه الفرضية لكن الميديا الأمريكية ترفض ذلك شكلًا وموضوعًا، وتزعم أن أصابع أسامة بن لادن هى التى تقف وراء هذا الحادث الذى هز العالم هزًا عنيفًا.. بل وتغضب الحكومة الأمريكية إذا ما تحدث الآخرون عن فكرة المؤامرة التى حاكتها الإدارة فى البيت الأبيض لتخلق بذلك الحجة أو الذريعة لكى تغزو العالم، وتحتل من مناطقه كما تشاء. ولعل أول كتاب صدر فى هذا الشأن كان لكاتب فرنسى يُدعى تيرى ميسان وهو بعنوان "الخديعة الكبرى" لكن قامت

الدنيا فى أمريكا ولم تقعد، وحاولت احتواء الكتاب بعد أن صدر بعدة لغات ومنها اللغة العربية، وكتب ديفيد وولش السفير الأمريكى فى القاهرة وقتذاك محتجًا على الصحف المصرية التى تفسح المجال لشرح فرضيات وأفكار هذا الكتاب.. بل وقفت أمريكا وراء إغلاق مركز الشيخ زايد للأبحاث والذى كان أول من ترجم كتاب "الخديعة الكبرى"، ودعا المؤلف لإجراء نقاشات معه، أصدرها المركز لاحقا فى كتاب.. بمعنى آخر إن أمريكا تقود إلى جانب حربها العسكرية فى العراق، حربًا إعلامية فى كل الاتجاهات بهدف الوقوف فى وجه الحقائق، حتى يتسنى لها ترويج أحداث ١١ سبتمبر فزعمت أن هناك مجموعة تضم نحو ٢٥ شخصًا من الطلاب العرب يتدربون على قيادة (بل وخطف) طائرات الركاب.. وتحدث ضابط أمن أمريكى عن شكوكه فى أن يكون لهؤلاء "صلة ما" بأسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة فى أفغانستان إلا أن جهاز ال C.I.A لم ير فى هذا القول ما يكفى من الدوافع والأدلة لوضع شكوك هذا الضابط الأمريكى موضع فحص وتمحيص!!

وكانت أجهزة أمنية لنحو خمس دول هي: (روسيا، ومصر، وإسرائيل، وفرنسا وألمانيا) حذرت أمريكا من وقوع هجمات على أماكن بعينها داخل الأراضى الأمريكية.. ففى يونيو ٢٠٠١ بعثت المخابرات الألمانية بتقرير سرى تذكر فيه بالحرف الواحد أن إرهابيين قادمين من الشرق الأوسط لديهم نية خطف طائرات لمهاجمة رموز مهمة داخل أمريكا، لكن جهاز ال C.I.A الأمريكى لم يُعر هذا التقرير الألمانى أدنى اهتمام.

وثمة واقعة مؤكدة هى أن الرئيس الروسى بوتين كلف معاونيه بإرسال تحذير إلى الحكومة الأمريكية من أحداث إرهابية يتم التخطيط لها وتستهدف مواقع حساسة فى نيويورك وواشنطن وتحدث ضابط روسى كبير إلى نظيرة الأمريكى عن عمليات انتحارية لضرب أمريكا..

وفى مقابلة صحفية قال بوتين: إننى مندهش من رد فعل واشنطن إزاء

التحذيرات التى لفتنا نظرها إليها لقد هز قادة أمريكا أكتافهم فى سخرية ولا مبالاة وكانت إجابتهم غريبة عندما قالوا: لا نستطيع أن نفعل شيئًا ما، لأن نظام طالبان يرفض أن يطرد أسامة بن لادن.

ويرجح رجال الإستراتيجيا القول بأن هذه الردود من الجانب الأمريكى التى لم تأخذ كل هذه التحذيرات على محمل الجد، هى أمر مخطط له سلفًا، لأنه يخدم الأهداف الأمريكية فواشنطن تريد أن تقع "الكارثة" لكى تتذرع بها كدولة جريحة تريد أن تنتقم لنفسها دون أن يعترض أحد عندما تحرق الأخضر واليابس لاحقًا.. (وهو ما حدث بالفعل فى العراق).

وهكذا كانت وسائل "الميديا" مرتكزًا أساسيًا للمخطط الأمريكى عن طريق نشر الأكاذيب وأهمها أن أمريكا جاءت لتحرير العراق وليس لاحتلاله.

أقسم أن تنظيم القاعدة "مخترق" أمريكيا!

فى متابعتنا (شبه اليومية) لما يصدر عن تنظيم القاعدة الإرهابى من بيانات وتصريحات سواء التى كانت منسوبة إلى قطبه الأول (أسامة بن لادن) أو قطبه الثانى أيمن الظواهرى ننسى أن هذا التنظيم هو فى الأصل- فكرة أمريكية محضة- وإن جميع شخوصه الذين يملؤون الشاشات والفضائيات "مُهددين ومتوعدين" كانوا تلاميذ فى مدرسة المخابرات الأمريكية العريقة تعلموا على أيدى أساطينها من (ضباط الأمن والجوسسة) فنون القتل والذبح وسفك الدماء..

نعم لا ننسى كل ذلك، ونلهث وراء الميديا التى تحرك معظم خيوطها (فى بلادنا وخارجها) مجموعات أمريكية أو متأمركة ونتصور أن أمريكا بالفعل جادة فى صدامها مع من تسميهم بالإرهابيين مع أننا لو أمعنا النظر فى خطابات وتصريحات رموز الإرهاب العالمى لاكتشفنا عجبا!!

فالرسالة السياسية التى تتضمنها هذه التصريحات من حيث المضمون هى "لا تخدم غير السيد الأمريكي".. كما أن المتأمل فى توقيت إذاعة هذه البيانات سوف يدرك على الفور أنه توقيت يخدم- بشكل مباشر وفاعل- المخططات الأمريكية وهو ما يجعلنى أجزم (بل أقسم) أن هذا التنظيم الذى يدين (بقضه وقضيضه) إلى الأمريكان ليس أكثر من أداة فى يد الولايات المتحدة تحقق به جزء من إستراتيجيتها الرامية إلى الهيمنة ووضع اليد بقوة على مقدرات النفوذ والسلطة فى العالم..

ومن يك فى شك مما أقول فليشرح لى معنى أن يربط تنظيم القاعدة فى العراق بين إطلاق سراح بعض الرهائن الفرنسيين وبين سماح فرنسا للبنات المسلمات بارتداء الحجاب!

أو معنى أن يتحدث فجأة أيمن الظواهرى عن دعمه لحزب الله وحسن نصر الله مع أنه لم يثبت- فى أى وقت من الأوقات- أن ثمة صلة أو تعاطفا بين التيارين والرجلين..

أو معنى أن يتحدث أسامة بن لادن فى الذكرى الخامسة لأحداث ١١ سبتمبر مشددا على ضرورة مواصلة الكفاح ضد الأمريكان والغرب وضربهم فى عقر دارهم..

أو معنى أن يصرح أيمن الظواهرى الرجل الثانى فى تنظيم القاعدة كما نعرف بأن حرب الأمريكان لن تنتهى وتوجيه اتهامات بالجملة إلى بابا الفاتيكان مؤكدا أن تورطه فى تعليقات معادية للإسلام ولنبيه الكريم إنما يؤكد أن حربا صليبية تشن- فعلا لا قولا- على المسلمين.. ثم تناوله لقضية (دارفور) ورفضه إرسال قوات دولية إلى هناك..

أقول- وألفت الانتباه سريعا- إلى أن كل هذه المواقف التى يعبر عنها (تصريحا) تنظيم القاعدة لا يخدم غير الأمريكان الذين أقاموا إستراتيجيتهم الخاصة بمكافحة الإرهاب على اعتبار أن (القاعدة) تمثل تهديدا لأمنهم القومي.. وهى عندما تهدد بضرب أمريكا من الداخل- وتقاوم مخططاتهم الاحتلالية فى الخارج، وتقف على طرفى نقيض مع المواقف الأمريكية.. كل ذلك إنما يصب فى النهاية فى رصيد الإدارة الأمريكية التى رأت- وهو ما يحدث بالفعل- أن تبنى مجدها على ما يسمى بإستراتيجية مكافحة الإرهاب..

وهنا قد يطيب لى السؤال التالي:

هل من مصلحة أمريكا اليوم أن تعلن انتهاء خلايا تنظيم القاعدة؟

بالطبع "لا" لأن هذا تنظيم يجب أن يبقى فزاعة تخيف به العالم- كل العالم- فليس من قبيل المصادفة أن أى حادث عارض يجرى فى جنوب أفريقيا- أو فى هاييتى أو سيبيريا لابد أن ينسب على الفور- إلى تنظيم القاعدة.. بمعنى آخر أن

مصلحة واشنطن أن يظل هذا التنظيم (بكافة رموزه وأجياله المتعاقبة) باقيا لتظل فرائص الدول فى أقاصى الدنيا وأدناها ترتعد خوفا منه.. ومن ثم لا تتردد فى أن تطلب الحماية من (سيد العالم).

فى إطار هذه الرؤية الأمريكية لدور ووظيفة تنظيم القاعدة يتعمد رجال الأمن والجوسسة الأمريكيين استحضار (أسامة بن لادن) إما فى صورة المريض الذى يعانى مرضا عضالا وإما فى صورة المتوفى الذى أجهز عليه مرض التيفود، وإما فى صورة المتحدث معلقا على أحداث تجرى هنا وهناك فى المنطقة والعالم..

ولا يخالجنى شك فى أن إظهار تنظيم القاعدة عبر أجيال قيادية مختلفة أمثال الظواهري، أو الزرقاوي، أو أبو حمزة المصرى وآخرين.. إنما يؤكد أن واشنطن تدرك أن أسطورة أسامة بن لادن يجب أن تبقى شاخصة فى الأذهان، ولا تغيب لحظة واحدة عن "عقل العالم" إن لم يكن فى شخص أسامة بن لادن فمن خلال شخوص رفاقه وتلاميذه ومريديه..

أقول وأكرر (ما أقسم عليه) وهو أن تنظيم القاعدة الذى تعلن أمريكا الحرب عليه وتقوم بتجييش الجيوش ضده قد خدم إدارة واشنطن "ولا يزال" خدمة جليلة فهو صنيعها- لا جدال- وحجتها، ومخلب قط فى يدها، تخيف به هذا النظام، وهذه الدولة، وتلك الحكومة.. لكنها تبدو أمام العالم فى صورة المحارب الذى لن يهدأ حتى يتمكن من تجفيف منابعه، والحقيقة أنها تمده بكافة الوسائل العسكرية والمادية، وليبقى مجاهرا بعدائه لها. فتكسب ما تكسبه من دعم العالم وتعاطفه (أو خوفه لا فرق) معها.. وأكاد أقول أن هذا التنظيم (تنظيم القاعدة) ليس بهذه الدرجة من الدقة والأحكام والانتشار على نحو ما تصوره المخابرات الأمريكية.. هو أضعف وأكثر هشاشة مما نظن، لكن تضخيمه والتهويل من أمر خطورته إنما يخدم أمريكا وحدها.. ولذلك لن يموت هذا التنظيم ما دام يقوم بالوظيفة المنوطة به.. وقناعتى الراسخة هى أن رجال الأمن الأمريكى اخترقوا- فى براعة- هذا التنظيم وزرعوا من زرعوا من رجال وأجهزة، فى أعماق أعماقه، بل ووصل بعض رجالهم إلى مواقع

قريبة من قادة التنظيم وشغلوا مواقع المستشارين لهم..

لذلك تصدر المواقف عن الظواهرى وأعوانه فى توقيتات، ومناسبات لا تخدم غير الإستراتيجية الأمريكية.. لهذا أقسم أخيرا أن تنظيم القاعدة أصبح تنظيما أمريكيا صميما وإن ارتدى قادته "الجلباب" واعتمروا "بالعمامة" وتدلت من بين أيديهم "المسبحة".

١١ سبتمبر: مؤامرات ونظريات

تحتفل أمريكا والعالم كل عام بأحداث ١١ سبتمبر ويذكر الجميع الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش خرج علينا ذات مرة بأكذوبة أخرى- ضمن سلسلة أكاذيبه يقول فيها إن العالم أصبح أكثر أمنا واستقرارا عن ذى قبل.. مع أن الأعشى والأعمى والبصير على السواء يعلمون أن العالم أصبح أكثر تهديدا وفوضى وأن أحداث ١١ سبتمبر قد أخرجت الإرهاب من القمقم كما اتسعت دوائر كراهية أمريكا فى أنحاء العالم، وتوهجت نيران الاسلاموفوبيا أى الخوف من الإسلام والمسلمين.. كل ذلك يتأثر- بل أكاد أقول باطمئنان- بتخطيط من سيدة العالم أمريكا العظمى.

اللافت للنظر أن "الفرضية" التى ترى أن فريق المحافظين الجدد فى البيت الأبيض هو الذى أعد ودبر خطط لأحداث ١١ سبتمبر قد خفت صوتها فى العالم إلا داخل أمريكا ذاتها، فلقد احتشد الآلاف من الأمريكيين فى مكان البرجين المدمرين يرفعون شعارات تدين الرئيس بوش ورفاقه وتؤكد مجددا أن هذه الأحداث الإرهابية هى من صنيع أيديهم لكى يكون لديهم المبرر فى السيطرة على العالم (كل العالم).

ولابد من التذكير بموقف السيد ديفيد وتش مساعد وزيرة الخارجية وقتئذ لشؤون الشرق الأوسط- عندما كان سفيرا لبلادة فى القاهرة- إذ غضب غضبة شديدة- بسبب ترجيح الميديا المصرية وخصوصا الصحف- لفرض المؤامرة التى حاكها المحافظون الجدد وأفرزت أحداث ١١ سبتمبر.

كما لابد من التذكير أيضا بإصرار واشنطن على إغلاق مركز الشيخ زايد

بالإمارات العربية بسبب حفاوته بمؤلف كتاب الخديعة الكبرى (الفرنسى تيرى ميسان) الذى فصح بالأدلة والقرائن والبراهين هذه المؤامرة التى ألصقتها واشنطن بتنظيم القاعدة الذى صنعته أمريكا بالأساس ليحقق لها أهدافها فى أفغانستان.

والحق أن الأطروحات التى قدمها الفرنسى تيرى ميسان ليست الوحيدة التى تسدد أصبع الاتهام فى صدور قادة البيت الأبيض ولكن هناك عشرات الكتب التى صدرت فى العالم منها كتاب ١١ سبتمبر "مؤامرات ونظريات" لمؤلفه الألمانى ماتياس بروكر الذى يضع- ببراهينه التى لا تقبل الدحض- حبل المشنقة حول عنق عائلة بوش بالكامل!

فيذكر أن (بوش الجد) موَّل هتلر النازى ثم ساعد الجيش الأمريكى على التخلص منه لاحقا.

أما (بوش الأب) فلقد فعل الشيء نفسه مع صدام حسين، فهو الذى سلحه ومولّه وأوحى له بفكرة احتلال الكويت، ثم شن الحرب عليه بعد ذلك.

وبحسب الكاتب الألمانى ماتياس بروكر فإن (بوش الابن) قد سار على نفس الطريق فالصغير قبل الكبير يعلم أنه كون ثروته بالتعامل مع أسرة بن لادن السعودية واشتغل- كرجل أعمال- فى أساطيل شحن ونقل النفط عبر السفن العملاقة.

ولم يمنعه تعاون هذه الأسرة معه من مطاردته لابنها (أسامة) الذى أخذه فى البداية ودربه داخل جهاز الـ C.I.A وقدم له السلاح والصواريخ واطلقه ليحارب (بالنيابة عنه) العدو السوفيتى الأحمر فى أفغانستان..

وبعد أن انتهت مهمته، كان لابد من أن ينقلب عليه انقلاب السحر على الساحر.

إذن نحن أمام مؤامرة تم تدبيرها بدقة تبدو فيها أمريكا ضحية الإرهاب، فيكون ذلك مبررا لها فى أن تنتقم ممن تشاء، وتستحدث حروبا استباقية تجهض بها كل

القوى التى تتشكك فى نواياها وتخشاها.. لتبقى أمريكا سيدة العالم بلا منازع.

الغريب والعجيب أن واشنطن مثلما برعت فى حبك هذه المؤامرة التى زيفت فيها الحقائق فقد نجحت بالفعل فى تخويف وإرباك الدول التى ترجح كفة المؤامرة ودأبت من خلال وسائل الميديا التابعة لها على تشويه الأحداث.

وهو ما يسميه مفكرو السياسة والإعلام "فن البقاء سيدا" لكن هيهات..

فالتاريخ الإنسانى لن يقف عند أمريكا وإنما ستتواصل حلقاته لتضع بوش ورفاقه وراء القضبان بتهمة الإجرام فى حق الإنسانية.

إخوان "الحقد" وخلان "التآمر" على مصر!

يذكر المفكر الجزائرى المعروف "محمد أركون" لحظتين مصريتين الأولى يحمل التقدير لها، والثانية يحمل عليها. أما الأولى فهى مؤلفات محمود عباس العقاد التى كان يتم تسريبها إلى الجزائر لكى يقرأها الثوار (وخصوصا المؤلفات الدينية).. ويقول كان العقاد يوقظ فيهم العقيدة الدينية "الإسلامية" التى دأب الاستعمار الفرنسى على طمس ملامحها فى إطار خطته الثقافية التى كانت تهدف إلى تذويب الشخصية الإسلامية للشعب الجزائري..

ولذلك كان الاستعمار الفرنسى يعاقب كل من يتم ضبط سلسلة العبقريات أو الدراسات الإسلامية الأخرى التى وضعها العقاد.. ويضيف أركون: هذه اللحظة الفكرية (المصرية ساهمت فى ربط الشعب الجزائرى بأصوله الدينية، كما كرست صلات "العروبة والقومية" داخل الجسد الجزائرى فكأن مصر كانت (حائط الصد) الذى حمى الجزائر من مؤامرة الاستعمار الفرنسى الذى كان يزعم أن الجزائر (امتداد) لفرنسا على شاطئ المتوسط (الجنوبي).

أما اللحظة الثانية التى يحمل عليها البروفسيور أركون فهى اللحظة التى امتد فيها فكر (الإخوان) إلى الجزائر.. وهو فكر أحادى ومنغلق وأناني، ولا هدف له سوى الوثوب إلى مقاعد السلطة.

ويؤكد أركون أن جذور الفكر المتطرف للجماعة الإسلامية المسلمة تعود إلى الفكر "الإخواني".. وكان الإخوان يتحملون مسؤولية حالة الإرهاب والعنف" التى يكتوى بنارها الشعب الجزائرى طوال العقدين الأخيرين.

ومما أذكره أن أركون كان يتحدث فى غضب عن الفترة التى أمضاها نفر من الإسلاميين المصريين وعلى رأسهم (الشيخ محمد الغزالي) الذى سلمته القيادة السياسية عقول وقلوب الشعب الجزائرى ليعبث فيهما كما يشاء.. وقد ظل على هذا الحال سنوات عديدة، ولذلك جاءت الثمار "فجة" وهى تلك التى نجنيها اليوم. ويقول أركون فى حزن.. لقد شاءت أقدارنا أن تفيء مصر (الشقيقة الكبرى) علينا بأمرين أولهما حلو، وثانيهما مر.. وخطورة هذا الشيء الثانى أنه مستمر حتى اليوم، ويبدو أنه سيبقى طويلًا لأن شبكات الإخوان تدعمه، وتتواصل معه بكافة السبل!

ما يقوله محمد أركون بشأن هاتين اللحظتين المصريتين فى حياة الجزائر يكاد يتشابه مع ما يراه مفكرون آخرون فيما يتعلق بتأثير مصر فكريا وثقافيًا على شقيقاتها العربيات خصوصًا فى هذه المرحلة التى تكشف فيها الجماعة المحظورة- دون خجل- عن أنيابها التى تريد أن تفترس بها الصغير قبل الكبير بدعوى (الإسلام هو الحل..)

ويعتمد الفكر الإخوانى أو بالأحرى الخبث الأخوانى على أن أحدًا ليس بوسعه أن يرفض أن يكون الإسلام هو الحل لكافة قضايانا الدنيوية...

لكن التسليم بذلك يعنى أننا أمة تعيش بلا "دين" وهو أمر غير صحيح، فالشعب المصرى دون سائر الشعوب، تلعب العقيدة الدينية دورًا غائرًا وعميقا فى حياته حتى فى زمن الفراعنة التى لم يكن إنشاء إحدى معجزات الدنيا (الأهرامات) سوى تجسيد حقيقى لعقيدة البعث والنشور والجزاء والعقاب والحياة الأخرة..

وهى مفردات لم تبعد كثيرًا عن المعانى الإسلامية الخاصة بالحياة بعد الموت.

ثم يطرح هذا الشعار سؤالًا مهما.. لئن كان الإسلام هو الحل، فأى إسلام يريد الإخوان.. هل هو ذلك الدين الذى يفرضونه فرضًا على البشر أجمعين، من منظور رؤيتهم فقط. بمعنى هل من حقهم أن يضعوا تصورًا للإسلام لا يكون مسلمًا من يرى تصورًا آخر غيره.

وهل من حقهم أن يجتهدوا ثم يحرموا الآخرين من الاجتهاد.. ثم كيف يستقيم ذلك مع القاعدة التى تقول: إن الاجتهاد فريضة إسلامية؟

أم أن الإخوان يريدون اختزال الإسلام (هذا الدين الحنيف) فى الإخوان وكفى؟!

ويبدو- للأسف- أن الأمر كذلك.. فعندما قتل الإخوان النقراشى باشا رئيس وزراء مصر فى مرحلة ما قبل الثورة، إنما كان لاختلافهم حول مفهوم الإسلام..

ويذكر الجميع أن عباس العقاد حمل حملة شعواء على الإخوان فى ذلك الوقت، وقال: نحن لنا عقول مثلما أن للإخوان عقولًا.. وإذا كان من حقهم الاجتهاد، فلنا أيضًا نفس الحق!

وهذا معناه أن أزمة الإخوان تكمن فى داخلهم.. فهم يرون أنهم- وحدهم- المسلمون، وما عداهم فليسوا بمسلمين على الإطلاق.

وعندما يرفعون شعار الإسلام هو الحل، فكأنما يتعين على العالم- كل العالم- أن يسلم لهم بالقيادة ثم يخرط كالقطيع، ينفذ التعليمات التى تصدر إليه.. ولعل هذه الرؤية العنيفة التى يتعامل الإخوان- من خلالها- مع البشر هى التى أقنعتهم بأنهم قوم أعلى وأغلى من البشر.. ولم لا، أليسوا هم الذين نيطت بهم- ولست أدرى كيف؟! مهمة إنقاذ البشرية من الجاهلية الحديثة التى نحياها- من وجهة نظرهم- وهم بذلك يريدون القول: إن السلف الصالح والصحابة المكرمين، ومن قبلهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كانت مهمتهم إنقاذ البشرية من الجاهلية القديمة.. وها هم اليوم يواصلون المسيرة، ولذلك كان عليهم إنقاذ العالم من جاهلية "القرن العشرين" والحادى والعشرين"

مشكلة الجماعة المحظورة هى أنها تتعامل مع شعب مصر (بكافة أطيافه وشرائحه، وبعلمائه، ومفكريه، ومثقفيه) وكأنه مجموعة من الصبية أو الصغار الذين لم يبلغوا بعد سن الرشد.. وبالتالى يتعين قيادتهم إلى حين يريدون..

وهي- لعمري- نظرة خاطئة ليس فقط لأنها فجة ومعيبة وعارية من الصواب ولكن أيضًا لأنها تفضح سيناريو الوثوب للسلطة الذى يدغدغ مشاعر وحواس الإخوان منذ زمن..

ومرة أخرى مؤكدًا أن للإخوان (مخططًا) لا يقل خطورة عن مخطط الموساد الإسرائيلي، ومخطط تنظيم القاعدة.. فالطموح المشترك هو طموح سياسى بالدرجة الأولى، والأداة هى أكاذيب- وألاعيب لا تنطلى على عاقل.. والإخوان وغيرهم ينتهزون غياب التوعية السياسية لدى الشباب ويريدون قطع الطريق على الأصوات العاقلة التى تدعو أطياف الأمة إلى المشاركة السياسية فى الإصلاح، والتعديلات ورسم صورة مشرقة لمصر "غدا وبعد غد".. ولكن هيهات أن يتحقق لهم ذلك..

تفاؤل عربى فى غير موضعه!

كلنا يذكر كم التفاؤل الذى غمرنا جميعا عندما جلس باراك أوباما على مقعد رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، خصوصا أنه جاء فى لحظة كان الغضب العالمى بلغ الحلقوم من إدارة جورج دبليو بوش ورفاقه من المحافظين الجدد التى جعلت منحنى كراهية أمريكا يرتفع إلى درجات لم يصل إليها قط من قبل.. أما ضحاياه فيعدون بالملايين فى العراق وأفغانستان وفلسطين وعن السياسات الظالمة فالحديث إذا بدأ فلن ينتهي.. ولذلك كان أوباما في نظر العالم- وتحديدا فى الشرق الأوسط- بداية لصفحة جديدة فى السياسة والعلاقات الدولية.

وعندما زار الرجل تركيا وتحدث هناك حديثا لا يخلو من عاطفة تجاه العالم الإسلامي، ورؤية معتدلة تجاه العرب أثلج ذلك صدور الكثيرين وبدأت تسرى فى الناس نغمة أننا أمام حاكم من نوع خاص للتاريخ والإنسانيات مكان رحب فى صدره.. أما حديثه الخلاب تحت قبة جامعة القاهرة، وخطابه الذى وجهه إلى العالمين العربى والإسلامى فكان حديث القاصى والداني، وجد فيه رجال السياسة ما يتمنون سماعة، ولقى فيه رجال الاستراتيجيات مقصدهم، وعثر فيه دعاة السلام على حقائق ظنوها غابت، فإذا بها لا تزال تنبض بالحياة..

ولقد بالغ الكثيرون فى منطقة الشرق الأوسط فى التعاطى مع خطاب أوباما، فمنهم من اعتبره إيذانا بفتح جديد فى السياسة الدولية انطلاقا من عوامل عرقية. باعتبار أن أوباما هو شخص ملون وسليل أسرة كانت فى الأصل مسلمة، وهو ما يعنى أن الرجل سيحفظ لكل الشعوب قدرها، ويتعامل مع الدول الأخرى- وخصوصا الصغيرة منها- من منظور العارف بالتاريخ والثقافة والحضارة.. ومنهم

من اعتبره (نبيا) أرسلته العناية الإلهية ليملأ الدنيا عدلا بعد أن امتلأت ظلما وجورا.. ومنهم من رأى أن البعد الإنسانى سوف يجد لنفسه مساحة فى السياسة الدولية العالمية.. وكذلك الأخلاق ومراعاة الفضائل..

وكادت كراهية كل ما هو أمريكي، وهو الإرث الذى حمله أوباما عن سلفه بوش الابن- تنحسر دوائرها شيئا فشيئا.. وتبشر- فى ذات الوقت- بحياة لا فرق فيها بين شمال وجنوب، أو بين غنى وفقر سيما وأن أوباما أعلن فى أكثر من مناسبة أنه سيولى اهتماما من نوع خاص للمهمشين والجياع، وصرعى الحياة بشكل عام ولأن المنطقة العربية محسوبة بشكل أو بآخر على هذه المساحة من البشر، فلقد ارتفع منحنى التفاؤل بأوباما إلى أعلى عليين..

وامتلأت أرجاء المنطقة بالسعادة الغامرة عندما تحدث الرجل عن ضرورة اعتدال الموازين.. فالشعب الفلسطينى صاحب قضية عادلة- هكذا قال- وليس بالإمكان حل القضية العربية دون إلزام إسرائيل بالخضوع إلى مرجعيات السلام.. ومن رحم هذا الفكر تحدث أوباما عن ضرورة وقف الاستيطان كمقدمة ضرورية يجب أن تسبق استئناف المفاوضات.. ثم أصر على طلبه برغم معارضة إسرائيل.. وظلت آمال العرب معلقة طويلا بهذه الوعود (الأوبامية) تمييزا لها عن غيرها من الوعود الأمريكية التى قطعها رؤساء سابقون على أنفسهم.. وتابع العرب مراحل العناد الإسرائيلى الذى عبر عنه نيتانياهو رئيس الحكومة الإسرائيلية.. وكان ذلك أشبه بالمحك الذى سيتعين اختبار مصداقية وعود أوباما.. وبالإمكان القول إن (هذا الفصل) كان البداية الحقيقية لانهيار التفاؤل الذى كان قد أصبح أشبه بالصرح الكبير.

وكانت المفاجأة أن أوباما الذى أعلن القطيعة فإذا به يعود ليرتق ما انقطع فى الثوب الذى ترتديه الولايات المتحدة.. وتحدث المقربون منه خصوصا هيلارى كلينتون وزيرة الخارجية عن استثناء شرط وقف الاستيطان.. وكذلك طالب مبعوثه الخاص للشرق الأوسط وقتئذ (جورج ميتشل) الذى رأى أن شرطا كهذا سيكون

حجر عثرة فى طريق الحل. والتفت العرب يبحثون عن أوباما فلم يجدوه إلا مشغولا بقضايا الداخل، وبعد عدة أسابيع أصبح الحديث عن مبدأ وقف الاستيطان حديثا ممجوجا وبات راسخا فى الأذهان أنه من الكياسة والدبلوماسية عدم الخوض فيه مرة ثانية وبالتوازى مع ذلك، حدث تراجع - بأقصى سرعة - عن مبدأ آخر كان لاح للعرب أنه سيكون خطا أحمر، لكن تبين أن أمريكا تؤمن بأنه لا ضرورة للخطوط الحمراء.. وأقصد بذلك يهودية الدولة الإسرائيلية فها هو أوباما لا يقبلها فقط بل يباركها ويحرض الآخرين على التحمس لها وثالثة الآثافى فى هذا السياق أن يتولى الرئيس أوباما بنفسه دعوة الدول العربية - جميعا - إلى التطبيع - ولو جغرافيا - مع إسرائيل.. وهو دعوة تعتبرها دول كثيرة مستحيلة، لأن الدولة العبرية لم تقدم شيئا يمكن أن تكافأ عليه بهذا التطبيع!

ووسط هذا الخضم المثير من الوعود والحنث فيها أو الالتزام بأمر ما ثم التراجع عنه خرجت علينا الخارجية الأمريكية بحديث مسهب عن انشغال أمريكا بإعداد مبادرة سلام تحمل اسم أوباما وبرعت الرئاسة الأمريكية فى تجييش وسائل الميديا فى أمريكا والعالم العربى للحديث الإيجابى عن المبادرة.. وانتظر الناس طويلا، وكانت المفاجأة أن الحديث عن هذه المبادرة "المزعومة" بدأ يخفت ويخفت حتى أصبح وكأنه لم يكن فى الأصل.

وبالتوازى مع هذه التراجعات التى ارتج لها العقل السياسى العربى ارتجاجا قويا كان صرح الآمال العريضة يتهاوى حتى أصبح أطلالا أو كاد.! والأغرب من ذلك أن صورة أوباما التى كانت رمزا للاعتدال والتوازن باتت تتماهى "وتتداخل" مع صورة سابقه جورج دبليو بوش..

يبقى أن نعترف أمام أنفسنا بشيئين الأول: أنه لا فروق كثيرة بين بوش الابن، وأوباما وأكبر دليل على ذلك أن التمييز بين سياستى الرجلين باتت صعبة خصوصا فيما يتعلق بعملية السلام وأمن إسرائيل.. وليس فى هذا الأمر غرابة لأن معظم أركان حكم أوباما هى ذاتها أركان حكم بوش الابن خصوصا داخل البنتاجون

الذى يلعب دورا مهما فى رسم وتنفيذ سياسات أمريكا الخارجية.

الثاني: هو أنه لا صلاح لأمرنا إلا بالاعتماد على أنفسنا والكف عن ترقب وصول أى شخص فى مقعد الرئاسة سواء فى أمريكا أو فرنسا أو بريطانيا أو روسيا.. وغيرها تكون مهمته إنقاذ وجه العرب من المهانة والإذلال التى تسببها إسرائيل لهم.. فما حك جلدك مثل ظفرك.. لكن العرب لا يفهمون.



القسم الثانى

أمريكا ليست بريئة

أمريكا تبحث عمن يُحارب إيران (نيابة عنها!)

كلنا يذكر أن "قوة" "ومنعة" الولايات المتحدة لم تأت لأن شعبها هو (الأفضل)، وعقلها هو (الأذكى)، وإنما جاء من الزج بالآخرين فى الحروب، ليكونوا مدافعين عنها بينما تظل - هي - بعيدة، تحتفظ بقوتها دون نقصان! حدث ذلك - بشكل واضح - فى الحرب العالمية الثانية عندما تدثرت بإمكانياتها الذاتية واستغلت وجودها الجغرافى البعيد نسبيا عن آتون الحرب فى قلب أوروبا..

ولذلك تذكر كتب التاريخ أن ألمانيا النازية قد تحطمت، واليابان قد تزعزعت، وباريس قد سقطت مهزومة.. بينما لم يصب أمريكا سوى أشياء صغيرة أشبه بالندوب والكدمات..

أريد أن أقول: إن قادة أمريكا قد فهموا هذا الدرس من وقائع التاريخ (القديمة والجديدة)، ولذلك يلجؤون إليه فى وقت الأزمات..

فحاليا - على سبيل المثال - لا تفكر أمريكا إلا فى شيء واحد هو أن تبحث عمن توكل إليه بمسؤولية أن يحارب - نيابة عنها - ضد إيران.. وعمن يصمد - نيابة عنها - فى وجه المقاومة العراقية أو من تسميهم هى بالإرهابيين..

نعم - هذا هو الشغل الشاغل للولايات المتحدة، ولقد اعترف الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش بذلك - قبل أن تجبره المقاومة العراقية على أن يخلع ورقة التوت الأخيرة التى يستر بها عورته فى بلاد الرافدين فها هو عندما يُلقى بمسؤولية دعمه فى العراق على دول مثل مصر والسعودية والأردن، إنما يحيى من جديد سياسة (الحرب بالوكالة) التى تبرع فيها أمريكا منذ زمن..

وعندما يهدد هذه الدول بأنها إذا لم تسارع فى إنقاذ أمريكا من المستنقع العراقى الذى أوقعت نفسها فيه، فإن الإرهاب سوف تنتشر بؤرة بما يهدد بقاء النظم الحاكمة فى مصر والسعودية والأردن ودول الخليج.. أقول: إن هذا التهديد يعكس حالة التوتر القصوى التى تعيشها أمريكا اليوم، وبصرف النظر عن جديد هذا التهديد (من عدمه) فالثابت أن أسنان جورج دبليو بوش تصطك من شدة الهلع من هزائم أخرى قد تطيح به وبرفاق الدرب من المحافظين الجدد الذين حولوا العالم- كل العالم- إلى دار حرب!!

ويبدو أن واشنطن قد ضمّنت إستراتيجيتها الجديدة فى العراق فى ٢٠٠٧ خطة تصعيد موازية مع إيران على أن تتولى (دول فى المنطقة) مسؤولية المواجهة نيابة عن أمريكا.. وإلا فما معنى أن تداهم قوات أمريكية مكتبًا تابعًا للقنصلية الإيرانية فى مدينة أربيل الواقعة فى شمال العراق وتلقى القبض على خمسة(؟؟؟)!

وقبل ذلك بأقل من شهر من هذا التاريخ كانت القوات الأمريكية قد ألقت القبض على أربعة إيرانيين كانوا فى زيارة للرئيس العراقى طالبانى بناء على دعوة رسمية منه!!

وفى منتصف ديسمبر- كانت القوات الأمريكية قد اعتقلت عددًا من ضباط المخابرات الإيرانية وزعمت أنه يشتبه فى أنهم خططوا لهجمات على قوات الأمن العراقية..؟!

هذه علامات استفهام ضرورية لا مناص من طرحها..

خصوصًا أن آخر هذه المداهمات جاءت بعد سويعات من إذاعة خطاب الرئيس جورج دبليو بوش الذى تحث عن إيران وسوريا واتهمها بأنهما يدعمان الإرهاب فى العراق.. وزعم أن منطقة (الأنبار) قد أصبحت قاعدة لإمبراطورية إسلامية راديكالية يسكنها بن لادن وأعوانه، والدعم يأتيهم غزيرا من طهران!!

وهنا تكتسب تصريحات وزير الخارجية المصرى أهمية خاصة فى هذا التوقيت خصوصًا أنه نفى وجود أية ضغوط أمريكية لتشكيل محور سنى يضم مصر والسعودية وتركيا لمواجهة النفوذ الشيعى الإيرانى فى المنطقة.. وقد يكون الصحيح أن نقول- فى ضوء محاولة أمريكا تجييش المنطقة ضد إيران وفق نظرية الحرب بالوكالة- إن أمريكا تحاول الضغط بشتى الطرق لضمان الدعم لها- لكن دول المنطقة ترفض ذلك رفضا قاطعا وكما قال- حقا- إن العلاقات المصرية مع البلدين قوية – فى ذلك الوقت – فى إطار العلاقات الثنائية، ومن ثم فلا معنى للقول بأن هناك محورًا سنيًا سوف ينشأ لمواجهة المحور الشيعي..

ليس من شك فى أن مصر أكثر ذكاء من أن يعتقد البعض أنها يمكن أن تبتلع الطعم الأمريكى وتنوب عن أمريكا فى حرب ضد إيران، أو فى حرب ضد المقاومة فى العراق.. وقد يكون الصحيح أن نذكر أن مصر قد حذرت أمريكا مرارا وتكرارا من الغرق فى المستنقع العراقي.. كان ذلك فى رسائل سريعة لم يفهمها الرئيس الأمريكى ولعل آخر رسالة كانت قبيل إعدام صدام حسين وكانت تحمل تحذيرا من تداعيات هذا الحدث، الذى آثار استياء العرب والمسلمين لتزامنه مع ساعات النحر فى عيد الأضحى.. لكن أمريكا لم ترتدع!

فكيف تصر الإدارة الأمريكية على الانزلاق فى هذه المنخفضات ثم تطلب- – فى غطرسة – من دول مثل مصر أن تدعمها وإلا فالإرهاب سوف تتسع دوائره ويهدد أمنها واستقرارها!

وكأن الخيار الأمريكى هو: إما أن تدعم مصر أمريكا فى حربها ضد العراق وإيران وإما أن يستهدفها الإرهاب!

إنه خيار خاطئ ولا مبرر له لأن أمريكا- بحسب استطلاعات الرأى فى المنطقة والعالم هى رأس الشر- وحاضنة الإرهاب، ولا مقصد لها سوى إشعال المنطقة بالحروب لكى يحترق الأخضر واليابس فيها.. بينما تظل (هي) بعيدة لا ينالها سوء كما كان الحال إبان الحرب العالمية الثانية! إنه ديدن السياسة الأمريكية لا جدال.

وللإنصاف يجب أن نذكر أن الفضاءات السياسية مكتظة بالعداوات بين إيران وأمريكا، وليس هكذا الحال بالنسبة للفضاءات السياسية بين مصر وإيران.. ومن ثم فلا مصلحة لمصر فى أن نشتبك مع إيران..

وإذا كان الملف النووى الإيرانى قد أحدث (تماسًا) من نوع ما مع مصر. فالمحقق أن لمصر موقفا ثابتا ينطلق من دعوتها لأن تكون منطقة الشرق الأوسط خالية من أسلحة الدمار الشامل.. والمعنى المقصود هنا هو أن تكف إيران عن محاولة الإنفراد بالسلاح النووى وكذلك إسرائيل التى اعترف رئيس حكومتها بأن بلادة تمتلك سلاحًا نوويا. كما تذكر الأرقام أن إسرائيل تملك حوالى ٢٠٠ رأس نووية!

وعندما قال الرئيس مبارك مؤخرا: إن مصر لن تقف تتفرج بينما دول أخرى تتبارى فى امتلاك السلاح النووى كان يقصد إيران وإسرائيل معًا..

المهم أن لا عداء بين مصر ودول المنطقة ومنها إيران لكن رصيد العداء الأمريكى لدى إيران كبير ومتسع فأرث الكراهية القديمة الذى تختزنه الذاكرة الأمريكية يرجع إلى حادث اتخاذ موظفى السفارة الأمريكية فى طهران رهائن أواخر السبعينيات لعدة أشهر.. شعرت فيها أمريكا بالمهانة والإذلال.. كما أن لطهران امتدادات وتأثيرات فى لبنان بيد حزب الله، والعراق بيد الشيعة، والأراضى الفلسطينية بيد حماس والجهاد..

ناهيك عن التصريحات الرنانة التى يطلقها الرئيس الإيرانى وقتئذ أحمدى نجاد، وتستخف منها بالدولة العظمى ويصر على مواصلة جهوده لامتلاك التكنولوجيا النووية السلمية..

وعندما تقول كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية وقتها إن إيران هى العقبة التى تقف فى طريق مخططات أمريكا فى منطقة الشرق الأوسط.. ففى هذا الكلام وحده أكبر مبرر لمنحنى الكراهية المتصاعد دائمًا ضد إيران..

بكلمة أخرى: إن مصر لا تقبل إرسال أية قوات عسكرية خارج حدودها، وترفض أن يزج بها فى (حرب بالوكالة) عن أمريكا أو أى دولة أخرى..

وعلاقتها بإيران لا يمكن أن تتأثر بضغوط أمريكية أو غير أمريكية، ولا صحة لما يقال عن تأسيس محور سنى ليواجه المحور الشيعي..

ولئن كانت أمريكا قد شعرت بالهزائم فى العراق تنهال فوق رأسها، والرمال المتحركة تنداح تحت قدميها، فهذا ما قدمته يداها، وعليها أن تجنى الثمار الفجة لما زرعته بغطرستها المقيتة..

فمصر لن تحارب من أجل أحد. وأوهام المحور السنى والمحور الشيعى لا وجود لها إلا فى عقل أمريكا المريض أو هكذا ينبغى أن يكون!

فوبيا إيران: حقائق وأوهام

أشهد أننى أكاد أرى (بعينى رأسي) أن دوائر الخوف من إيران تتسع يوما بعد يوم فى المنطقة العربية، دون أدنى سبب واضح اللهم إلا إشعال نار الفتنة،والزج بالمنطقة- كل المنطقة- إلى حالة من عدم 'الاستقرار والشعور الدائم بعدم الأمان.

اللافت للنظر أن الطرف الأصيل فى هذا العداء مع إيران هو الولايات المتحدة، وليس المنطقة العربية، لكن كما هو (ديدن) السياسة الأمريكية، فهى تتعمد الاختفاء وراء مثل هذه الخصومات التى تفتعلها بهدف أن تتولى بعض الدول العربية (الحرب بالوكالة) عن أمريكا.

فتسرف فى الحديث مثلا عن تضخم دور إيران الإقليمى لتنزعج مصر، وتشعر بالخطر يُهدد دورها كدولة رائدة تحتل تاريخيا دور الزعامة العربية.. ثم تعمد إلى النفخ- مجددا- فى الخلاف الإماراتي- الإيرانى بشأن الجزر الثلاث (طنب الصغرى، وطنب الكبرى، وجزيرة حميش) فتمتلئ سماء الخليج بالخلافات و لتحرشات، وتعود الميديا تتحدث عن الفرس، والعرب، والشعبوبة إلى آخر هذه النعرات التى ذاقت الدول الإسلامية منها الآمرين عبر تاريخها الطويل.

وفى إطار حملتها المنظمة لتسميم الأجواء العربية- الإيرانية تثير أمريكا- مع سبق الإصرار والترصد- قضية الأمن القومى الخليجى وما يمثله امتلاك إيران لسلاحا نوويا من مخاطر ومحاذير إلى حد أن بعض الدول الخليجية قد أصدرت تصريحات تعبر عن هذا القلق الذى نجحت طهران فى إزالة بعضه من خلال زيارات لكبار مسؤوليها استهدفت طمأنة هذه الدول بشكل تام. لكن لا أحد ينكر أن النسوس لا يزال بها (أشياء) خصوصا فى ضوء التحريض الأمريكى غير البريء ضد إيران

وملفها النووى ومعلوم أن طهران قد بح صوتها من كثرة تأكيد حقها كدولة مستقلة ذات سيادة فى أن تقوم بتطوير التكنولوجيا النووية واستخدامها استخداما سلميا.. ولمزيد من إبداء حُسن النوايا فتحت أبواب مفاعلاتها أمام المفتشين الدوليين دون استثناء، وقدمت إجابات شافية عن كل الاستفسارات، لكن أمريكا فى إطار النفخ فى نيران الخوف (أو الفوبيا) من إيران لم تصغ إلى ذلك وأصرت على اتهام إيران بالعقوق والنكران، ومن ثم يتعين عقابها!

ما أود أن أشدد عليه هو أنه لا مصلحة للمنطقة العربية فى الصدام مع إيران، فضلا عن أن أى خلاف يمكن تسويته سلميا مع هذه الدولة التى لا يختلف اثنان حولها: فهى قوة إقليمية ذات شأن ويمكن أن تكون دعما (لا خصما) للدول العربية.

وعلى الطرف الآخر، يمكن أن نرصد أكثر من سبب لعداء تراثى بين أمريكا وإيران يعود بجذوره إلى أكثر من ربع قرن وتحديدا منذ أزمة الرهائن فى السفارة الأمريكية فى طهران والتى هبطت بأنف أمريكا إلى الأرض!

ثم هناك امتدادات إيران الشيعية فى العراق، ولبنان، ولم يعد خافيا أن استقرار الأوضاع فى هاتين الدولتين يجب أن يمر- بشكل ما- من خلال طهران

ولا يجب ننسى أن إيران هى الحليف القريب لسوريا وتعتبرهما واشنطن حاليا- ضمن محور الشر.. ومما يذكى نيران العداوة أن إيران التى كانت فى زمن الشاه منطقة نفوذ أمريكية باتت محرمة اليوم على كل ما هو أمريكي.

أريد أن أقول إن الخصومة الحقيقية لا وجود لها إلا بين أمريكا وإيران، بمعنى أن المنطقة العربية لا ناقة لها ولا جمل فى أى خلاف مع إيران لكن واشنطن تضع الغشاوة على عيوننا لنرى فى إيران (العدو الأكبر) الذى يهدد الأمن العربى القومي.

وهي- بلا شك- ستكون المستفيد الأكبر من ذلك: فتربح المليارات من بيع السلاح لبعض الدول العربية، تحسبا لهجوم إيرانى متوقع.. وبدعوى "الخطر الفارسي" والمثلث الشيعى المرتقب" تزج بالمنطقة إلى أتون حرب لا تُبقى ولا تذر.

بكلمة أخيرة.. تسعى أمريكا إلى "أبلسة" إيران وتجييش المنطقة العربية (خصوصا الخليجية) ضدها لتخوض حربا بالوكالة عن أحفاد العم سام.. ويخرج منها (أبناء يعرب) بخفى حنين بعد أن يكونوا قد خسروا الأرض، والنفط، وتحولت بلادهم إلى قواعد أمريكية من المحيط إلى الخليج.

إن فوبيا إيران (أى الخوف المرض وغير المبرر من إيران)، هو فخ أمريكى ماكر.. ليتنا ننتبه إليه قبل فوات الآوان.

فى بيتنا متأمرك!

يبدو أن الهوى الأمريكى "غلاب" إلى حد تصعب مقاومته، فلقد انتشر المتأمركون بيننا "كالفطريات" وأصبحوا يسدون علينا كل المنافذ وألسنتهم كلهم ليل نهار بأكاذيب وترهات واشنطن التى تخفى بها- أو هكذا تظن- أطماعها ومخططاتها الاستعمارية.

أخطر ما فى هذا الأمر أن الخطر القادم من سموم هؤلاء المتآمركين الأشاوس "أصبح أكثر كارثية" من الخطر القادم من الأمريكيين أنفسهم، ليس فقط لأن المتأمركين من أبناء جلدتنا، ويعيشون بين ظهرانينا ولكن أيضا- وهذا هو الأهم- يتموقعون فى أماكن جد حساسة ومؤثرة سواء فى مراكز الأبحاث أو وسائل الميديا (بمختلف أنواعها) أو الجامعات، وهم مترابطون إلى حد يُذكر بأعضاء المحافل الماسونية، يمهدون لبعضهم البعض فى شغل المواقع، وعقد الندوات، والكتابة فى الصحف، والإطلال بشكل منتظم عبر المرئيات..

وهذا الحال ليس امتنانا على الحقيقة أو تزيد عليها إنما هو واقع يلمسه كل ذى عينين وحمل على عنقه رأسا يفكر.

ولقد اعترفت قيادات أمريكية بارزة بأن من مهامهم تجنيد هؤلاء "المتأمركين" (المشتاقين للسلطة والمال) لخدمة المخططات الأمريكية، فها هو دونالد رامسفيلد وزير الدفاع والصقر الجارح فى الإدارة الأمريكية يعترف بأنه أنشأ وحدة أطلق عليها اسم "وحدة التحليل الاستراتيجي" تابعة لرئاسته مباشرة فى النبتاجون مهمتها تجنيد كتاب وصحفيين ورجال سياسة، وزعماء أحزاب، وباحثين، وأكاديميين للترويج للقيم الأمريكية، وتبييض وجه أمريكا (الكالح) والدفاع عن سياساتها

الاستعمارية تارة باسم الحرية (والحرية منها براء)، وتارة أخرى باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان.. بينما الحقائق التى تفقأ العيون تكشف أن الديمقراطية التى تتحدث عنها واشنطن هى ديمقراطية زائفة ومشبعة بدماء الأبرياء (وضحايا العراق وأفغانستان أكبر مثال على ذلك) أما حقوق الإنسان التى تتشدق بها أمريكا (والمتأمركون رضى الله عنهم وأرضاهم!) فهى قصص ترويها جدران أبو غريب (فى العراق) وجوانتانامو (فى كوبا)

ويذكر رامسفيلد فى كتاب فرنسى بعنوان: "١١ سبتمبر صناعة أمريكية" أن هؤلاء المتأمركين ينقاضون مقابل ذلك رواتب ثابتة يحصلون عليها إما بشكل ثابت شهريا أو عن طريق تقديم "منح" "وبعثات" يسافر فيها المتأمركون إلى "الجنة" أقصد إلى أمريكا ليتم تدريبهم تدريبا ذكيا على المهام التى سيكلفون بها لاحقا..

وأذكر أن أحد كبار كوادر المتأمركين مهمته أن يجمع بين وقت وآخر شبابا من الصحفيين المبتدئين لينفخ فيهم من روحه (المترعة) بحب أسياده الأمريكان، ويظل لساعات طوال يتحدث ويكرر كالببغاء أن أمريكا بلد الحريات، والتسامح، وأن وجهها ناصع البياض، وليس (ملطخًا) بدماء، أو (مشوها) بأكاذيب على نحو ما يصور البعض فى بلادنا..

واعترف المسؤول عن دبلوماسية العلاقات العامة ويدعى إدوارد جيرجيان الذى ينفق من ميزانية قدرها ٦٠٠ مليون دولار أن دوره هو عمل تنظيم من كتاب وأدباء ومفكرى منطقة الشرق الأوسط يقوم بتسويق صورة أمريكا وتنقيتها من الشوائب التى غلقت بها..

والتركيز على القيم المشتركة "فى ترويج صورة أمريكا المتسامحة بهدف استمالة عقول وقلوب العرب والمسلمين.

وأكد جيرجيان أن جزءًا أساسيًا من دوره هو إتاحة الفرصة للمتأمركين ويقصد بهم (الكتاب المتعاطفين مع التوجهات الأمريكية) للظهور فى وسائل الميديا لشرح

وتبرير السياسات الأمريكية..

والمعروف أن هذا الـ"جيرجيان" كان يعمل فى السابق سفيرًا لدى سوريا وإسرائيل ، وكان أبدى دهشته فى وقت سابق- من قوة المحطات الفضائية العربية وانعدام الرؤية الأمريكية فيها..!

الغريب أن المتأمركين (من أبناء جلدتنا) أصبحوا- بتأثير الدولارات بالطبع- ملكيين أكثر من الملك، فهم يصلون ليل نهار فى محراب السياسة الأمريكية، وجعلوا من أنفسهم "رأس حربة" فى يد الأمريكان، يحاصرون كل من يختلف معهم فى الرأي، ويتآمرون على تهميشه وتطبيق الخناق عليه، ولم لا وهم يسيطرون على مساحة كبيرة فى الميديا، ومراكز الأبحاث.. ويشدون بعضهم بعضا كالبنيان المرصوص فتجدهم يتنادون لعقد الندوات فى هذا المحفل أو ذاك، وتفتح الصحف المختلفة فتجدهم قد اعتلوا منابرها رافضين عقيدتهم بدعاوى "الواقعية السياسية!" متهمين كل من لا ينسج على منوالهم" بالغيبوبة السياسية!"

ويزعمون أنه لا يعترض على الأمركة سوى المجانين ويضعونهم فى قفص اتهام جديد- يتناسب مع المرحلة- فيقولون: إنهم شيوعيون جدد! فى محاولة بائسة لإلباس الوطنيين المخلصين قميص الشيوعية بكل ما تعنيه من عيوب ومثالب..

الخطر الداهم يا قوم يسكن بيننا، ويتخفى فى خاصرتنا إنهم المتأمركون الأشرار الذين يصدق عليهم القول المأثور : اللهم احمنى من أصدقائي.. أما أعدائى فأنا كفيل بهم!!

أمريكا ليست بريئة

فى مايو ٢٠٠٩ طردت بروكسل اثنين من الدبلوماسيين الروس من أراضيها بتهمة التجسس على حلف الناتو وتوعدت موسكو بالرد المؤلم على ذلك.. وفى ظنى أن مسألة التجسس التى تتذرع بها أوروبا لا تقوم على أساس صحيح خصوصا أن التقنيات الحديثة قد نالت كثيرا من مسألة التجسس فالمعلومات متوافرة فى كل مكان ولم يعد صعبا الحصول عليها حتى المعلومات العسكرية وكلنا يعرف أن ثورة الإنترنت قد أحدثت زلزالا فى هذا الاتجاه، وبالتالى فالحديث عن "التجسس" كما هو الحال بين الناتو- وأوروبا من ناحية، وروسيا من ناحية أخرى يعكس واقعا آخر وهذا هو الأهم، وهو أن العلاقات بين أمريكا وأوروبا أولا ثم روسيا ثانيا ليست فى صحة جيدة...

وكلنا يذكر حرب روسيا على جورجيا بل والقلاقل التى تثور- كالبركان فى جورجيا كانت فى جانب منها ردا روسيا على محاولات جورجيا والدول المجاورة الانضمام إلى حلف الناتو، وهو ما يعنى فى نظر روسيا تهديدا لأمنها بل اختراق حقيقى للأمن القومى الروسي.

يضاف إلى ذلك أن روسيا لم تغفر بعد لنفسها السماح باختفاء "حلف وارسو" الذى تأسس ليكون ردا دفاعيا على "حلف الناتو" وأنها لا تزال تشعر بالحنين يجرفها باتجاه النفوذ والسيطرة على القرار الدولى الذى كانت شريكا فاعلا فيه وقت الحرب الباردة ثم تقلص هذا النفوذ واختفت لاحقا عندما انهارت منظومة الثنائية القطبية التى سيطرت على النظام الدولى ردحا من الزمن.

بكلمة أخرى أن النظام الدولى الحالى والذى تتبوأ فيه أمريكا- وحدها- المكانة-

الرأس تشعر روسيا بكثير من المهانة فى كنفه ولذلك تحاول بين وقت وآخر أن تقول "لا" على طريقتها مرة باختلاق متاعب سياسية من نوع ما فى هذا البلد أو ذاك ومرة بالاعتراض واستخدام حق النقض (الفيتو) فى مجلس الأمن ومرة بالمجاهرة بمساندة الدول التى تعتبرها أمريكا وأوروبا دولا مارقة... إذن هناك حالة قلق فى النظام الدولى الحالي، وأحسب أن روسيا ستظل مصدرا لهذه القلاقل طالما لم تجد استجابة أو مرونة من الجانب الآخر بكلمة أخيرة أن الجاسوسية المزعومة ليست الا غطاء لخلافات عميقة ومتجذرة بين القوتين العظميين أمريكا وروسيا.

نحن والآخر وأدبيات الحوار

فى دفاعه عن المجرم قاتل مروة الشربينى فى قاعة محكمة دريسدن فى ألمانيا، قال أحد المحامين: إن المجرم الحقيقى هو وسائل الإعلام! وفى هذا القول ظل من حقيقة لان الإعلام الأوروبى والأمريكى دأب منذ وقوع أحداث١١ سبتمبر عام٢٠٠١ على ربط الإرهاب بالإسلام، وتكريس فكرة أن العرب والمسلمين أناس يتغذون بالدم ويكرهون الآخر، لا لشيء إلا لأنه يختلف عنهم!

وكان طبيعيا أن يتأثر قاتل مروة الشربينى بكل ما يُكتب أو يُذاع أو يُنشر عن المسلمين، فارتبط فى ذهنه، نتيجة لذلك، أن أى سيدة ترتدى حجابا فهى بالضرورة إرهابية وكذلك أى رجل يطلق لحيته ويكون اسمه محمدًا أو محمودًا أو مصطفى أو الأسماء الأخرى ذات الدلالات الإسلامية فهو بالضرورة إرهابي..

ومعلوم أننى لست فى معرض الدفاع عن المجرم الألمانى الذى استحق عقابه وهو السجن مدى الحياة ـ وهى أقصى عقوبة فى القانون الألمانى الذى ألغيت فيه عقوبة الإعدام مثل باقى الدول فى أوروبا ـ وقد يكون(العكس تماما) هو ما أريد قوله.. بمعنى أن الإعلام الألماني(والأوروبي) قد وفر المناخ الملائم لظهور عشرات بل مئات من المجرمين(القتلة) الذين يكرهون العرب والمسلمين لمجرد أنهم يدينون بالدين الإسلامي، ومن ثم علي(القتلة) أن ينالوا عقابهم، كحال قاتل مروة الشربيني، لكن علينا ألا نغفل المجرم الحقيقى ـ أقصد وسائل الإعلام مرئية ومسموعة ومكتوبة ـ باعتبارها والحالة هذه ـ مدرسة لتفريخ المجرمين من كل لون وجنس!

والحق ان استنساد وسائل الإعلام الغربية علينا يرجع إلى عدة أسباب، منها العنصرية والتحيز ضدنا، وسيطرة اللوبى اليهودى على معظمها.. لكن الأهم ـ فى اعتقادى ـ هو ضعفنا وعجزنا عن مواجهة المزاعم والأكاذيب التى تملأ السماوات الإعلامية فى بلاد الغرب حول الإسلام والمسلمين بشكل عام.. وحتى فى حال حدوث اشتباك مع الآخر حول قضية من القضايا التى تحتاج إلى رد أو توضيح نجد أنفسنا الخاسرين! والمثال الصارخ على ذلك هو أزمة الرسوم الدانمركية التى اشتعلت نيرانها لبعض الوقت وهاج المسلمون وماجوا فى أقاصى الدنيا وأدناها ثم أصبحت النيران رمادا، ولم يحدث شيء اللهم إلا تكريس لسوء الفهم القائم بيننا وبين الغرب، ومما يؤسف له أن هذا المنهج فى التعامل مع الأحداث والوقائع أصبح(لصيقا) بنا برغم أنه يوردنا موارد التهلكة..

.. وأقصد بالمنهج هنا، ذلك الأسلوب الذى اعتدنا عليه وهو الصراخ والضجيج وإشعال الحرائق داخل وسائل إعلامنا.. وغاب عن بالنا أن أحدا (سوانا) لم يسمع هذا الضجيج، أى أننا قمنا بعمل(مونولوج) أقصد حوار ذاتى مع أنفسنا لم يشعر به أحد من هؤلاء الذين أساؤوا الظن فينا وأغضبونا! وهذا ـ فى اعتقادى ـ هو سر الخسران المبين الذى يلازم معاركنا سواء تلك التى تُفرض علينا أو التى ندخلها بإرادتنا..

ففى أزمة الرسوم الدانمركية ملأنا صحفنا مقالات واتهامات وربما رد بعضنا موضحين أن الإسلام بريء من كل هذه الترهات التى تقال عنه.. وأسرفنا فى قول نعرفه نحن جميعا ـ لكن لا يعرفه الآخرون ـ وهو أن الإسلام دين ينبذ العنف ويحث على قبول الآخر أيا كان لونه أو جنسه أو دينه، ويدعو للتعايش بين الشعوب فى محبة ووئام.. لكن لأن ما كتبناه كان باللغة العربية فلم يشعر به أحد، وكذلك كان الحال فى فضائياتنا وإذاعاتنا التى ظلت(تصلصل) أسابيع وشهورا وتعزف نفس النغمة بلغة الضاد التى لا يعرفها سوى العرب.. وهذا هو ما قصدته على وجه التحديد من

كلمة(مونولوج).. إذ لا يكف لساني عن الكلام لكن لم يسمعني(الآخر) المستهدف أولا وأخيرا بهذا الحديث..

وكان الصواب هو أن نعتمد منهجا مغايرا هو(الديالوج) أي الحوار مع هذا الآخر، سواء كان شخصا أو دولة أو مجموعة من الدول.. وفي حالتنا التي نشير إليها كان ضروريا أن نرد ونوضح وندخل في سجال لكن عبر الحوار(الديالوج) وليس عبر الحوار الذاتي(أي المونولوج).. ولا ننسى أن الحوار - والحالة هذه - يستند إلى قاعدتين: الأولى أن أتحاور مع الآخر بلغته هو وليس بلغتي.. وأن أكتب في صحفه هو، إذ لا معنى للكتابة في صحفي التي لا يقرؤها سوى قومي..

بهذا المعنى أكون قد استوفيت الجانب الأول من الديالوج.. أما الجانب الثاني فهو التخلي عن المشاعر والوجدانيات وبدء الحوار عبر الإقناع والمنطق العقلي.. فهذا الآخر يعيش حضارة تقف في شموخ أمام العقل والعقلانية، ومن ثم لا مجال للخوض في أمور عاطفية أو روحانية.. وهو أسلوب لو تذكرنا قليلا لعرفنا أن أربابه كانوا من المسلمين الأوائل، ويبرز هنا اسم فيلسوف العقلانية الشهير ابن رشد الذي لم يتأفف الغرب من التعلم على يديه..

أريد أن أقول إن الخطاب العقلاني هو الركن الأصيل في هذا الحوار (الديالوج) الذي نبتغيه جسرا للتواصل مع الآخر.

وإنصافا يجب أن نعترف بأننا لا نجيد(ثقافة الديالوج) كما يسمونها في الغرب، لأننا - من وجهة نظرهم - قد اعتدنا على قبول ما يقال دون مناقشة.. وإذا كان لابد من نقاش فعلى قاعدة الحوار مع الذات همسا! وبقناعة مسبقة مؤداها: ليس بالإمكان أبدع مما كان، ويربط نفر من المستشرقين المتعمقين في حضارة وتاريخ الشرق(هذا الحال) بالواقع السياسي الذي يتسم في أحايين كثيرة بالاستبداد وغياب المشاركة والشفافية بين الحاكم والمحكوم.. وأيا كان نصيب هذه الرؤية من الصواب، إلا أن ثقافة الديالوج غائبة فعلا لا قولا حتى بين بعضنا البعض.. فكيف

بنا نطلبها لتكون فلسفة تعامل بيننا وبين الغرب، وأحسب أن مساحات سوء الفهم ستظل قائمة وستتسع دوائرها يوما بعد يوم بسبب حالة المونولوج التى تتقمصنا وكأنها الشيطان المريد.. وبات علينا أن نبادر بتحطيم هذا الواقع والولوج فيه إلى فضاء الحوار دون أن ننسى أنها مهمة صعبة،لأن عتبتها الأولى هو بناء الثقة بين طرفى الحوار والأهم تكريس فكرة(الندية).. فلا حوار إلا بين(أنداد).. وها هو التاريخ لم يحدثنا قط عن حوار بين(سيد) و(عبد).. فالأول يأمر، والثانى يطيع دون مناقشة.. وسوف يساعدنا فى ذلك أن للإسلام فى أوروبا ـ مثلا ـ صورتين: صورة أكاديمية وهى قريبة من واقع الدين الإسلامي.. والصورة الثانية هى إعلامية بامتياز مليئة بالمغالطات. وأحسب أن الحوار الصحيح مع الآخر يبدأ بإبراز الصورة الأولي، وتعتمد على المنهج العلمى فى البحث، ومناقشة الصورة الأخرى المغلوطة أو المدسوسة(لا فرق) خصوصا أنها الأكثر شيوعا لأنها لقمة سائغة لوسائل الإعلام تلوكها فى الفم ليل نهار.. لكن بشرط أن تكون المناقشة عقلانية وبعيدة عن الوجدانيات، واختصارا لابد من الاهتمام بالخطاب الإعلامى وطريقة معالجته لقضايانا دون أن ننسى أن الأفكار لا تحارب بالرصاص وإنما بأفكار أخرى شرط أن تحدث نوعا من الديالكتيك على طريقة الفيلسوف الألمانى هيجل.. يبقى أخيرا أن نعترف بخطأ التناول الإعلامى الذى ينطلق من مبدأ الحوار مع الأنا أو الحوار الذاتى (المونولوج).. ومادام ليس بوسعنا أن نمنع الآخر من الحديث عن قضايانا وعقائدنا وحضارتنا، فلأصوب أن نقيم معه حوارا إيجابيا من قاعدة الديالوج التى يؤمن بها.. وبدون ذلك سنظل أسرى العزلة والانكفاء على الذات والإحساس بالدونية واجترار الأحزان..

تقارير الحالة الدينية: فزاعة أمريكية

لكى نفهم حقيقة تقارير الحالة الدينية (الأمريكية) يجب أن نربطها بالمشاريع الاستعمارية الأمريكية فى العالم وخصوصا فى الشرق الأوسط والمنطقة العربية.. فالثابت أن المشروع الأمريكى فى العراق قد فشل فشلًا ذريعًا وسوف يظل كالندوب الغائرة على وجه أمريكا- فالعراق لم يتحول إلى جنة للديمقراطية كما كانت تدعى واشنطن والعالم لم يصبح أكثر أمنا وأمانا كما روجت أمريكا كذبا، والإرهاب لم تستأصل شأفته فى المنطقة على نحو ما روّج البيت الأبيض..

ولا شك أن عصابة المحافظين الجدد كانت ترى- عيانا جهارًا- نهاية مشوارها- وتعلم أن افتضاح أمرها (وأطماعها) بات سهلًا ميسورًا لأن أكاذيبها ملأت الأرجاء لذلك لجأت إلى أسلوب المساومات بعد أن تأكد لديها أنها- وهى أكبر قوة فى العالم- أعجز من أن تنقذ نفسها من المستنقع الذى وقعت فيه..

فالقاعدة التى كانت تحكم السلوك السياسى الأمريكى طوال سنوات ما قبل حربها على العراق- أو بالأحرى ما قبل فشلها فى العراق- هي: نتشاور مع الحلفاء والدول الصديقة، لكن عند الضرورة نتصرف بمفردنا!

لكن تبدل الحال- ووجدت أمريكا نفسها مضطرة للتنكر لهذه القاعدة- (فالتصرف بمفردها) أصبح عزيزا وصعبًا ولكى تنقذ نفسها من الهزائم التى تلاحقها فى العالم: فى العراق وأفغانستان، وكوريا الشمالية.. عليها أن تمديدها تطلب المساعدة من الآخرين..

فالمباحثات التى تجرى مع بيونج يانج تقوم بها- لحسابها- دول أخرى من بينها الصين واليابان.. والحال يتكرر مع دول أخرى لحفظ ماء وجهها فى أفغانستان..

أما العراق، فكلنا يعلم أن واشنطن تقف على رمال متحركة وصوت الاستغاثة يسمعه القاصى والداني.. ومفاوضاتها مع إيران تجرى بطريقة سرية على الرغم من التصعيد العلنى فى لهجة الخطاب السياسى المتبادل..

وفى هذا الإطار لجأت واشنطن إلى دول أخرى فى المنطقة تطلب أن تقوم بالحرب نيابة عنها..

وعندما رفضت هذه الدول، أُسقط فى يد أمريكا، وكادت تفقد صوابها!

وكلنا يعلم أن البيت الأبيض بذل جهودًا خارقة فى إقناع بعض الدول العربية لكى ترسل قوات إلى العراق من بينها مصر لكن لم تجد أذنا صاغية..

ومع استمرار الهزائم وسقوط عشرات الجنود الأمريكيين (كالذباب) واضطرار الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش إلى الحديث عن الانسحاب الجزئى والمبرمج من العراق، وشعوره- بسبب ذلك- بالمهانة والإذلال.. كان لابد من استخدام فزاعات من نوع ما لتخويف الدول التى تقاعست- من وجهة نظره- عن نجدة أمريكا (وإنقاذها..) والأهم من ذلك، للانتقام لنفسه ولكبرياء الدولة العظمى.. أبرز هذه الفزاعات تقارير الحالة الدينية التى تتحدث عن تمييز دينى وعنصري، ومضايقات للأقليات العرقية والدينية.. وليس كافيًا أن التقرير الآخر قد تناول الأوضاع فى بعض الدول العربية مثل مصر والجزائر..

وأُلصق بها الاتهامات من كل حدب وصوب، وتجنى على حقائق تفقأ العيون.. لأن الأمريكان- أكثر من غيرهم- يعرفون الإطار المجتمعى الذى يعيش فيه الشعب المصرى (مسلموه ومسيحيوه على السواء..) وكلنا يعلم أن السيد ديفيد وونش مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية عندما كان سفيرا لبلاده فى القاهرة، كان يمشى فى الشوارع ويجلس على المقاهى ويخالط الناس.. وسار خلفه (السفير التالي)

على نفس الطريق.. وهذا يعنى أنهم يلمسون قوة ومتانة النسيج الاجتماعى المصرى.. وكان حريًا بهم عندما يكتبون تقاريرهم أن يتحروا الدقة، لكن هيهات.. والتزييف، وتشويه الحقائق ديدنهم! أريد أن أقول إن تقرير الحالة الدينية لم يصدر لوجه الله والوطن، وإنما صدر محشوًا بالمغالطات والافتراءات نكاية فى مصر التى رفضت المساومات خصوصًا إذا تعلق الأمر بمواقفها العروبية الثابتة.. سيّما وأنها أعلنت أكثر من مرة وفى غير مناسبة أنها ترفض احتلال العراق، وتطالب بوضع أجندة انسحاب وتستهجن- فى الوقت ذاته- أية محاولة لتقسيم هذا البلد العربى الشقيق أو زرع الفتن بين أعراقه وطوائفه المختلفة..

وليس خافيًا أن موقف كهذا- لا يسعد له الأمريكيون خصوصًا أن دولًا كثيرة قد تبنت الموقف المصرى حتى كاد يكون موقفا عربيا خالصًا..

واللافت للنظر أن تقارير الحالة الدينية التى تصدرها الخارجية الأمريكية وتكيل فيها الاتهامات لمصر (ظلما وعدوانا) قد أتت بما لا تشتهى سفن أمريكا.. فكلنا يعلم أن الهدف من وراء هذه التقارير هو إغضاب المصريين من النظام والحكومة، وإثارة قلاقل اجتماعية، الإيعاز بأن أمريكا سوف تدعم الأصوات الغاضبة فى مصر..

لكن غاب عن بال البيت الأبيض أن المصريين لا يثقون فى أمريكا صاحبة المشاريع الاستعمارية التى تبغى الهيمنة واستنزاف موارد الشعوب..

وتحقق عكس ما تريده واشنطن فكلما ظهر خلاف بين أمريكا ومصر، كلما ازدادت ثقة الشعب فى الحكومة.. ولعل هذا هو ما دفعنى إلى القول بأن تقارير الحالة الدينية ليست أكثر من فزاعات أمريكية ولكن من ورق!

فالشعب المصرى أكثر ذكاءً ووعيًا مما تتصوره أمريكا.. ولا يمكن أن تقرر به دعاية أمريكية مغرضة وكاذبة.. وهو يعلم أن العلاقات المصرية- الأمريكية متعددة، ومتشعبة وتشتمل على تفاصيل كثيرة، لكن هناك مساحات كبيرة للاختلاف- فمصر لا تقبل اذعانا أو مساومة مهما كانت الإجراءات..

ولذلك فرصيد أى خلاف أمريكى مصرى يصب مباشرة لصالح الحكم فى مصر، إذ لا يعقل أن أمريكا التى تعتبر نفسها (الأمة الضرورة) وسيدة العالم (رغم أنف العالم..) وتحركها الأطماع فى السيطرة والهيمنة. تتحول بين عشية وضحاها إلى ناصح أمين يقطر قلبه حزنًا على الحالة الدينية فى مصر..

باختصار: تقارير الحالة الدينية التى تصدرها أمريكا هى واحدة من أدوات السياسة الخارجية تستخدمها (فزاعه) لتخويف الدول التى لا تقبل مساواماتها أو ترضخ لتهديداتها.. ولذلك فهى تقارير مغرضة لا تتوفر فيها عناصر النزاهة والموضوعية.. وقصارى أمرها أنها تقارير ورقية فارغة من المعنى..

القرن الـ"٢١".. هل يكون أمريكيا؟

ثمة قناعة لدى شريحة - لا يستهان بها - من المحللين السياسيين والاستراتيجيين فى العالم مؤداها أن الهيمنة الأمريكية باقية ومستمرة فى القرن الجديد القرن الحادى والعشرين ليس فقط لأنه لا توجد قوة متكافئة معها يمكن أن تنازعها موقعها القيادى فى العالم الآن، ولكن أيضا لأن غياب هذه القوة المتكافئة سيظل مؤكدا طوال العشرين أو ربما الثلاثين عاما المقبلة.

وعلى الرغم من أن مكانة الولايات المتحدة كقوة عظمى(واحدة ووحيدة) فى العالم اليوم تثير شعورا بالرفض أو المللة فى دوائر كثيرة بالعالم، فالثابت أن تفوق أمريكا(الذى لا يحده حد) قد كشفت عنه أحداث كثيرة فى كوريا الجنوبية، والخليج، والبوسنة،(حتى فى كوسوفا أخيرا) كل ذلك يبرهن على أنه لا وجود لقوة أخرى فى العالم مناوئة لقوة الولايات المتحدة باعتبار أن القوة تبقى العنصر الحاسم فى النظام الدولى لأنها الأساس والجوهر فى تأكيد الاستقرار. وأيا كان الأمر فالمؤكد أنه لا يوجد - فى التصور الحالى أى منافس قوى لأمريكا قادر على الوقوف فى وجه تفوقها والاحتمال الأضعف هو أن تصبح أوروبا هذا المنافس، لكن ليس قبل٢٥ عاما وبشروط صعبة.

وإذا خطر ببال احد أن روسيا يمكن أن تقوم بهذا الدور فالمحقق أنها فى حال تجاوزها أزماتها الحالية - ستصبح على الأكثر مجرد قوة إقليمية!.. وللوصول إلى هذه المكانة المتواضعة - عليها أن تقوم بتحديث آلياتها وكوادرها وأن تقدم لنفسها صورة الدولة المستقرة ضمن جوقة الأمم الأوروبية المتقدمة!

أما الصين التى يُلوح بها كبديل مناوئ للقوة الأمريكية فقد يصبح قوة إقليمية متفوقة ـ على أقصى تقدير ـ بمعنى أنها لن تصل إلى موقع القوة العالمية.

وإن كان على الولايات المتحدة أن تقبل فكرة صعود الصين فى شرق القارة الأوروآسيوية، فإن ذلك لا يعنى على الإطلاق أنها سوف تصبح قوة عالمية بعد عدة سنوات، لأن ذلك مرهون بنجاحها فى انطلاقتها الاقتصادية.

وإذا كان هناك من يعتقد أن الصين فى حال نجاحها فى تجاوز تناقضاتها بين حركة تحرير اقتصادها وبين حفظ استبدالها السياسي، فالمؤكد أنها لن تصبح فى نهاية المطاف أكثر من قوة إقليمية رئيسية فقط ـ تعمل الولايات المتحدة لها ألف حساب من منظور أن ثمة مصلحة مشتركة بين البلدين(أمريكا والصين) فى حفظ الاستقرار الإقليمى فى الشرق الأوسط والمواقع الحساسة مثل تايوان ومنطقة الجنوب الشرقى من آسيا. بعبارة أخرى ـ على الولايات المتحدة أن تجعل الصين مستعدة لفهم أن أية تدخلات عسكرية تمس المصالح الأمريكية لن تكون فى مصلحتها أيضا.

أيا كان الأمر، فالثابت كذلك، أنه لا مصلحة للولايات المتحدة فى أن تلعب الصين دورا إقليميا مستقلا والشيء نفسه يمكن أن يقال عن اليابان.. صحيح أنها الصديق(أو الحليف) الأكثر تأثيرا للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، لكن هذا لا يفرض أنها ستكون ـ والحال هذه ـ حليفها العسكرى الأساسى فاليابانيون لا يرغبون فى السير فى هذا الاتجاه خشية أن يعقد ذلك علاقاتهم بالصين فضلا عن سبب جوهرى آخر هو أن ثمة فروقا فاصلة بين تجربة اليابان(وتجربة ألمانيا) فى هذا الشأن فاليابان.. ـ مثلا ـ لم تعرف كيفية الاندماج فى بيئتها الإقليمية وطمأنة جيرانها ـ بينما عرفت ألمانيا ذلك وأجادته فى أوروبا.. إضافة إلى أنه لا يوجد فى آسيا مكافئ للمحور الفرنسى ـ الألماني... ان اليابان قد تصبح عاملا مؤثرا فى العالم لكنها لن تلعب دور الهيمنة الإقليمية التى تحد بشكل أو بآخر من المد الأمريكى الطاعن فى المنطقة الآسيوية والعالم. وإذا وضعنا فى الاعتبار صعوبة تعديل مجلس الأمن ليشمل بين أعضائه الدائمين أمريكا وأوروبا وروسيا والصين واليابان والهند (أو مصر)

ليعكس بذلك خريطة القوى والنفوذ العالمية اليوم وغدا، فالمؤكد أنه لن يوجد بديل فى المدى القصير للتفوق الأمريكى غير الفوضى العالمية التى ستحل حتما بالعالم إذا ما توقفت الولايات المتحدة عن لعب دور المهيمن.

لكن - وبالمقابل - ثمة من يعتقد أن منطق الحراك السياسى الدولى لن يقبل باستمرار الهيمنة الأمريكية(قدرا محتوما) على الشعوب فى القرن الجديد.. وحيثيات هذا الاعتقاد كثيرة ومنها:

أنه ليس دقيقا القول إن البديل الوحيد للهيمنة الأمريكية فى النظام الدولى الراهن هو الفوضى العالمية فالثابت أن التاريخ لا يعرف التراجع، ومثلما ظهر مصطلح القوتين العظميين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي) لأول مرة فى عام١٩٤١ ثم امتد كمرحلة فى العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى سقوط حائط برلين فإن مصطلح الأحادية القطبية) والذى تكدس بعد أن تهاوت الشيوعية فى أوروبا وسقط الاتحاد السوفيتى نفسه، قد آن أوان انكماشه.

صحيح أن الأمر قد يحتاج إلى فترات زمنية قد تصل إلى عشرين وثلاثين عاما لكى تظهر قوى مناوئة للنفود الأمريكى فى العالم مثل أوروبا العظمى التى يعتقد الإستراتيجيون أنها قد تظهر عملاقا فى أقل من خمسة وعشرين عاما - إلا أن القرن الحادى والعشرين سوف يشهد انكماش الهيمنة الأمريكية لحساب ظهور قوى إقليمية ودولية جديدة.

ناهيك عن أن الصين - على سبيل المثال - تعطى انطباعا بأنها(العملاق) الذى عاد يبحث عن ماضيه، وهاهو يستكمل أدوات عملقته مجددا - ومن المتوقع للصين أن تكون فى قلب قضايا وأحداث العالم فى القرن الحادى والعشرين، وطموحها يتجاوز حدود القوة الأولى فى آسيا، ويذكر تاريخها أنها لم تنس الألم - أو ربما الإهانة - التى كانت لحقت بها منذ لقائها بالغرب فى القرن الماضي.

ولا ريب أن الصين تعرف أن طموحاتها تقلق عددا من دول العالم فى جنوب

وشرق آسيا إلى جانب اليابان وأمريكا وباقى الدول الصناعية الكبرى، لكنها تواصل المسيرة وتهدد بتقليص الهيمنة الأمريكية فى منطقة شرق آسيا..

أما أوروبا العظمى فتسعى بدورها لاستعادة نفوذها المفقود فى وجه الأمريكان لتكون أحد أكبر القوى المؤثرة فى العالم ولذلك التفتت إلى تفعيل(اتحاد غرب أوروبا) الذى ظل حبرا على ورق لأكثر من أربعة عقود أما أقصى أمانيها فهى أن تنجح فى صنع سياسة خارجية وأمنية أوروبية موحدة وتجديد ملامح شخصية دفاعية لأوروبا(ولقد دخلت هذه الأمنية حيز التنفيذ بالواقع الجديد الذى يشغله خافيير سولانا حاليا كمندوب سامٍ أوروبى أو وزير بوزراء دفاع وخارجية أوروبا).

ويدرك قادة أوروبا أن حلم القوة الأعظم الأوروبية التى ستكون والحالة هذه ـ مناوئة للهيمنة الأمريكية عن جدارة واستحقاق، لن يتحقق بدون الحديث العسكرى وتثبيت البعض بعبارة أخرى ـ بغير هذين الأساسين لن تعود أوروبا للأوروبيين.

أما روسيا التى تمر بمرحلة ـ متاعب ـ وتحاول إعادة كتابة تاريخها ويسودها إحساس مر بتراجع دورها فهى لا تخفى رغبتها فى الحقيقة فى إعادة الإمساك بمنطقة تأثيرها التقليدية، ولذلك تنشغل فى البحث عن قيم وتوازنات جديدة وضرورية ولكن ولادة(روسيا جديدة) هو أمر لا يعتمد إلا على روسيا ذاتها، ولا أحد يعرف على وجه الدقة متى يحدث ذلك، ولا من هو الشخص الذى ستناط به مثل هذه المهمة الكبيرة ثم تأتى اليابان لتبشر بأنها ستصبح(البوتقة الإستراتيجية) للعالم فى القرن الحادى والعشرين ويطوى طموحها الآفاق آملة أن يتم قبولها عضوا جديدا فى مجلس الأمن. والحق أن حركة التحديث قد شملت جميع القطاعات بها منذ سنوات، وأصبح تقدمها الصناعى وضرب الأمثال والجسر الذى يمر بها من نصر إلى نصر منذ عام١٩٤٥ وحتى اليوم ورغم سنوات الأزمة التى مرت بها من

عام١٩٩١ إلى١٩٩٦، إلا أن صادرات اليابان ارتفعت إلى أكثر من ٣٠٪ وانتقلت من٣١٥ مليار دولار٤١١ مليارا كما نجحت فى استحداث نحو٤ ملايين وظيفة.

صحيح أن التحالف من أجل القرن الحادى والعشرين الذى كانت وقعته اليابان مع أمريكا جعلها نقطة المساندة الرئيسية للسياسة الأمريكية فى آسيا والباسفيك فى مواجهة الصين، إلا أن الطموح اليابانى لا يزال متأججا ـ ولا يحده حد.

بكلمة أخرى: إن اليابان(إمبراطورية الشمس) قد خرجت من القمقم وهى من أكثر القوى المرشحة لكى تهز عرش(الأمركة) فى العالم.

وأخيرا تظهر الهند كما لو كانت إرهاص عملاق استيقظ توه من النوم باحثا لنفسه عن مكان(فوق القمة) سيما أن مقومات الطموح متوافرة لديها. ورغم نموها الديموجرافى المتواصل إلا أنها نجحت فى أن تحقق لنفسها(الكفاية الذاتية) على الخريطة الغذائية بفضل ثورتها الخضراء التى كانت أطلقتها فى الستينيات.

وإلى جانب امتلاكها للسلاح النووى وإرسالها أقمارا صناعية فى الفضاء واتساع جامعاتها(يوجد بها٣٠٠ ألف باحث وتقنى على مستوى عال) بات من حقها أن نتساءل بأعلى صوت عن مكانها ودورها فى عالم الغد.

صحيح فى زمن الحرب الباردة كانت الهند قد لعبت دورا كبيرا على الساحة الدولية(من خلال سياسة عدم الانحياز) يفوق قوتها الاقتصادية والعسكرية لكن اليوم تبدلت الأحوال وأصبحت صحوتها تثير عداوات دول أخرى مثل باكستان والصين.

وفى النهاية يجب الانتباه إلى أن هذه المؤشرات الإستراتيجية التى تشترك فيها هذه القوى الإقليمية(الصين وأوربا وروسيا واليابان والهند) هى التى تجعلنى أكثر ميلا إلى ترجيح القول إن القرن الحادى والعشرين سيكون بالضرورة متعدد الأقطاب متنوع الثقافات.

مكافأة أمريكية لمن يخون بلده: تونى بلير نموذجًا!

منذ الجولات المكوكية لوزير الخارجية الأمريكية الأشهر هنرى كيسنجر فى سبعينيات القرن الماضى والمبعوثون الأمريكيون والأوروبيون يترددون على منطقة الشرق الأوسط، ويطلقون الوعود، ويتحدثون عن سلام (آمن وعادل وشامل) وعودة الاستقرار إلى دول المنطقة..

ورغم ذلك لم يتحقق شيء، فالأوضاع تسير من سيئ إلى أسوأ، والزعامات العربية والدولية تتوالى دون أن يتحرك ساكن..

وباتت منطقة الشرق الأوسط أشبه بنادى صغير يتدرب فيه سياسيو العالم على السفر والترحال، واصطناع التصريحات المطاطة، والحديث عن مباحثات ثنائية، ومتعددة الأطراف ومفاوضات.. إلى آخر هذه المنظومة من الكلمات الجوفاء..

فأوروبا اختارت لعدة سنوات السيد موراتينوس ليكون موفدًا خاصًا للسلام فى منطقة الشرق الأوسط، وأمريكا كلفت أكثر من سياسى أبرزهم المدعو دينيس روس ليشغل نفس الموقع (باسم واشنطن)

والأمم المتحدة نسجت على نفس المنوال وتُكلف بين وقت وآخر مبعوثا شخصيًا باسم الأمين العام للمنظمة الدولية ليحمل برسائل من هنا وهناك إلى حد أن الصين (الراغبة فى أن تكسر عزلتها) عينت شخصًا من أبنائها ليكون مبعوثا خاصًا لها فى المنطقة، وانتقلت العدوى إلى اليابان.. وكأنى بطائرات هؤلاء المبعوثون تتقاطع فى سماء المنطقة وأكاد أراهم يلوحون إلى بعضهم البعض.. كسائقى الحافلات.. ولم لا وهم يحملون نفس الملفات، ويهبطون ذات العواصم ويلتقون بنفس الأشخاص..!!

ورغم ردود الفعل المتباينة التى صاحبت قرار واشنطن بتعيين رئيس الحكومة البريطانية السابق توني بلير موفدا خاصًا لعملية السلام باسم اللجنة الرباعية، والحديث الصحيح عن عدم توافر عناصر الحيدة والنزاهة فى هذا الموفد الجديد، وانحيازه الكامل لإسرائيل، وجرائمه المتواصلة ضد الشعوب فى منطقة المشرق العربي، إلا أننى أرى هذه القضية من منظور آخر.

فالسيد تونى بلير- بما صورته الصحف البريطانية أكثر من مرة، ورسمه الكاريكاتور- هو الصديق (أو الكلب) الوفى لسيده الذى يسكن البيت الأبيض وهو الحليف الأقرب لأمريكا، والذى يسير معصوب العينين وراء السياسة الأمريكية إلى الحد الذى اعتبره المعلقون والمحللون وزيرًا فى الحكومة الأمريكية ومفوضًا بإدارة شؤون المملكة المتحدة (بريطانيا)..

وكلنا يذكر أنه كان أشبه بظل سيده (بوش الابن) يقف معه وحوله ووراءه، ويؤيد دون مناقشة مواقفه.. حدث ذلك فى حرب أمريكا على العراق، وحدث ذلك أيضا فى تأييده لحرب إسرائيل على لبنان فى الصيف الماضي، ونذكر جميعا أنه رفض عن عمد وقف إطلاق النار وإنهاء الحرب بصورة مبكرة ظنًا منة أنه فى استمرار الحرب سوف تجهز إسرائيل على حزب الله.. وهو ما لم يحدث على كل حال..

أقول: إن السيد تونى بلير ظل طوال مدة رئاسته للحكومة البريطانية كالطود الذى يدافع عن سياسة أمريكا..

وكان طبيعيا أن يفقد رجل كهذا كثيرا من شعبيته داخل بلده وخارجها، ونذكر أن هناك أكثر من مليون بريطانى خرجوا ذات يوم فى شوارع لندن يعلنون احتجاجهم على مشاركة بريطانيا فى الحرب الغادرة على العراق، وينعون تبعية بلير لأمريكا..

أقول إن بلير- من هذا المنطلق- كان قلقًا على مستقبله ويريد أن يظل تحت الأضواء، بل وبعد أن أدمن إطاعة الأوامر الأمريكية يرغب فى أن يظل (فى موقع) يسمح له أن يمارس هذا الإدمان، ويكون أداه طيّعة فى يد واشنطن..

وكأنى بتونى بلير قد أسّر بهذا الهاجس إلى سيده (بوش الابن) الذى أخاله قد ربت على كتفه مطمئنًا ليصدر القرار (سرًا) دون تشاور مع الشركاء بتعيين تونى بلير مبعوثا خاصًا للجنة الرباعية ..

صحيح اعترضت بعض الدول الأوروبية واتهمت أمريكا بأنها تدير اللجنة الرباعية لحسابها. كما تدير الأمم المتحدة وغيرها من التجمعات الإقليمية والدولية واستنكرت دول أخرى أن يفرض القرار عليها فرضا وشككت أطراف أخرى فى جدية هذا اليقين ورأت فيه مكافأة لتونى بلير على قائمة خدماته الطويلة التى قدمها لأمريكا..

ولا شك أن هذه الاعتراضات صحيحة جميعًا فالسيد تونى بلير جزء من المشكلة فى الشرق الأوسط، فكيف يتحول بين عشيه وضحاها إلى أداه للحل وقديما قالوا إن العقول التى تسببت فى حدوث المشكلة. لا يمكن أن تساعد فى إيجاد حلول لها.. والأمر ينطبق بالتمام والكمال على تونى بلير.. لكن ما الحيلة.. وهذه هى إرادة سيدة العالم (أمريكا).

ما يهمنى فى هذا السياق هو أن واشنطن بهذه المكافأة التى قدمتها لخادمها الأمين (تونى بلير) إنها تبعث رسالة إلى كل القادة والرؤساء وأصحاب القرار فى العالم.. معناها: أن كل من يخدم أمريكا، ويؤيد سياساتها، ويتبنى مواقفها.. فلا خوف عليه بعد أن يترك موقعه..

وأرى فى هذه الرسالة الأمريكية دعوة لأولى الأمر فى العالم لكى يخونوا أنفسهم وبلادهم وشعوبهم وحسبهم أن يضعوا نصب أعينهم مصلحة أمريكا فقط.. ليجدوا فى نهاية الخدمة: المكافآت والمناصب والامتيازات والأموال، والنفوذ، والجاه.. هذا هو أخطر ما فى قضية تعيين بلير مبعوثا خاصًا للسلام فى الشرق الأوسط..

لكن للإنصاف يجب أن نذكر أن أمريكا وإن صدقت- هذه المرة- مع تونى بلير، فهى لم تصدق مع خوسيه ماريا أزنار رئيس الحكومة الأسبانية السابق الذى اعترف- ذات مرة بحسب مجلة لوبوان الفرنسية- أنه ساند أمريكا فى حربها ضد العراق لكى تعينه أمريكا أمينا عامًا للأمم المتحدة خلفا بكوفى عنان.. وهو ما لم يحدث فترك فى قلبه (وجعا) وفى فمه (مرارة).

فى كل مرة ألمح فيها قسمات الوجه الأسمر للسيد كوفى أنان (أو أقرأ له تصريحات فى الصحف) أتذكر على الفور العبارة التى أطلقها الفيلسوف الألمانى الثائر فريدريك نيتشه التى يقول فيها: لا تنتظر من العبد أن يربى حرا!!".

فالسيد كوفى أنان الذى كان يجلس على مقعد المنظمة الأممية العالمية (الأمم المتحدة) منذ سنوات، وهذه هى المفارقة. لم يستطع أن ينسى أنه سليل أسرة نشأت وترعرعت فى زمن الاحتلال البريطانى لبلده (غانا).. وكان طبيعيا أن يرث عنها "العبودية" للرجل الأبيض.

كوفى أنان.. لا ننتظر من العبد أن يربى حرا!

وواقع الحال يؤكد ذلك مرارا وتكرارا، فالسيد كوفى كانت ترتعد فرائسه خوفا وفزعا من "أسيادة" ذوى البشرة الشقراء الذين يأمرونه "فينفذ" دون مناقشة، ونسى أنه يتربع على عرش أعلى منظمة دولية فى العالم، فكانت النتيجة أنه حول المنظمة إلى "كرباج" فى يد السيد الأمريكى يلهب به ظهر من يتمرد على القرار الدولى (أقصد القرار الأمريكي). أقول ذلك وفى ذهنى حاليا شيئان، الأول: تصريح السيد كوفى أنان الذى يطالب فيه سوريا بضرورة الانسحاب من لبنان بدعوى أنه لا يمكن أن تجرى الانتخابات التشريعية فى ظل الاحتلال السوري.

والثاني: لجنة التحقيق الدولية التى كان أرسلها السيد كوفي- فى سرية يحسد عليها- بهدف تقصى الحقائق فى حادث اغتيال رفيق الحريري.

وأجدني- كالمحموم- أستحضر فى رأسى وقائع مشابهة صمتت فيها منظمة السيد كوفى (الأمم المتحدة) صمت القبور، وغابت وكأنها لم تكن، فلقد كان انسحاب سوريا من لبنان ضروريا وعاجلا لأنه لا يستقيم وجودها مع الانتخابات فى لبنان، فكيف استقامت الانتخابات العراقية فى ظل وجود الاحتلال الأمريكى الغاشم للعراق؟

وتحضرنى أيضا فى مرارة واقعة أخرى تعكس "حالة الخزي" التى تعيشها الأمم المتحدة فى زمن السيد كوفي، فيذكر العالم أجمع أن الأمم المتحدة كانت قد شكلت لجنة للتحقيق (وتقصى الحقائق) بعد مجزرة جنين فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، وظلت اللجنة (التى كانت تضم ستة أفراد) تنتظر أن تسمح لها إسرائيل بالدخول إلى الأراضى الفلسطينية ومباشرة مهامها، وعندما رفضت إسرائيل ذلك لم يجد السيد

كوفى حرجا فى أن يعلن- فى شجاعة النمور- حل هذه اللجنة، وكأن شيئا لم يكن.. وأصبح ضحايا جنين الفلسطينيون نسيا منسيا، ولم يتحرك ساكن!

وليس يغيب عن بالنا-أيضا- موقف الأمم المتحدة من الأزمة العراقية (غزوا واحتلالا)، ففى البداية رفضت ضرب العراق إلا بقرار من مجلس أمنها، ثم عادت فأقرت ما كانت ترفضه سابقا، ولم يشعر السيد كوفى بالخجل عندما أظهر منظمته فى صورة الدمية التى تتحرك عن بعد تبعا لأهواء السيد الأمريكى "الأبيض" فأصبحت فى حال لا تحسد عليها، فهى من ناحية "مهمشة" فلا معنى لها، ولا تأثير، ثم هى "متورطة" أيضا فى كل الجرائم التى ترتكبها الولايات المتحدة- عيانا جهارا- فى العالم.

وكان للسيد كوفى فضل عظيم أن جعل المنظمة الأممية العالمية أشبه "بالكناس" الذى يُطلب منه أن يكنس القاذورات التى تخلفها الولايات المتحدة فى العالم فيفعل صاغرا.

بكلمة أخرى لقد نفح السيد كوفى بعضا من عبوديته على الأمم المتحدة، فأحالها إلى "عبد" آخر يدور فى فلك أمريكا "سيدة العالم!".

وغاب عن بال هذا الرجل أنه هبط بالمنظمة الدولية إلى أسفل سافلين، وجعلها "أضحوكة أو نكتة" تتندر بها العامة والسابلة فى جميع أنحاء المعمورة.

وبات علينا نحن- فى المنطقة العربية والشرق أوسطية- أن نصدق أن هناك قرارا دوليا وشرعية دولية، وإرادة دولية،وأن ننصاع لهذه الإرادة دون همس أو لمز وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور تنتظرنا.. وما درس صدام حسين "ونظامه" ببعيد عن الأذهان.

ففى الأمس كانت العراق، واليوم سوريا، وغدا إيران.. وهكذ ، وياللهول!! تكر حبات المسبحة الشرق أوسطية تحت إشراف السيد كوفى الذى أصبح- ويااللعار- صوتا جهوريا لسيده الأمريكي!

شخصنة العلاقات الدولية!

درجت العادة على وصف العلاقات بين مصر من ناحية وأى دولة أخرى بالعلاقات المتميزة راجعين سبب هذا التميز إلى بأنه العلاقات الشخصية بين رئيسى الدولتين.. بمعنى آخر إن "شخصنه" العلاقات الدولية أمر كان الجميع يسلم به!وأذكر أن هذا الأمر كان ثابتا إلى درجة مُميِّزة! فقد كنت فى باريس طويلًا وقرأت فى الإعلام المصرى المكتوب أن العلاقات بين رأس النظام فى مصر كانت حميمة مع ديستان ثم كانت مع ميتران، فشيراك- ثم كنت اندهش عندما كانت الصحافة القومية تتحدث عن العلاقات الحميمة بين رأس النظام السابق والرئيس نيكولا ساركوزي!

وتساءلت أن رأس النظام لو كان يريد أن ينسج علاقات شخصية وأخوية مع رجال السياسة فى فرنسا كان ضروريًا أن يزور هذه الزعامات الفرنسية عندما كانت فى المعارضة.. وقلت فى نفسي: إن هذا لم يحدث قط! وهذا معناه أن الإعلام المصرى المكتوب كان يختلف الأكاذيب. فالعلاقات الأخوية وشخصنه المصالح لم تكن إلا فى الصحافة المصرية أما فى الأوروبية فلم تكن تتحدث عن ذلك مطلقًا!

فبطرس غالى عندما اختارته دول العالم ليكون أمينا عاما للأمم المتحدة.. لم يتحقق ذلك إلا لأن رأس النظام المصرى كان صديقا لرؤساء العالم..!!

والبرادعى الذى حصل على نوبل وقبله أحمد زويل لم يحدث ذلك لا لقيمه فى أعمال الرجلين ولكن من أجل سو'د عيون رأس النظام المصري! بل إن مطالبة رأس النظام علاج المواطنين فى الخارج على نفقة الدولة الخاصة.. تحقق ذلك لأن رأس النظام كان يشعر بفقراء دولته! هذه الأكاذيب لا معنى لها فلقد تبين أن "الرجل"

كان مريضا ومشغولًا بذاته ولا أمر بطرس غالى ولا البرادعى وزويل فالتحقيقات التى تجرى مؤخرا أثبتت صحة ذلك.. والحق أن مدير مكتبة ورئيس ديوانه، ورئيس مجلس الشعب والشورى كانوا يحكمون وفقا لدوائر رسموها لأنفسهم.. فحرام مرة أخرى أن "تشخصن" العلاقات الدولية حتى لو كان المجلس العسكرى الأعلى.

العراق وفيتنام.. ما أشبه الليلة بالبارحة!

كان الأمريكيون- الغزاة- يسخرون فى البداية من الربط بين واقعهم فى العراق، وواقعهم الصعب فى فيتنام، وظلوا لأشهر طويلة يروجون (إشاعة) أن الشعب العراقى سوف يستقبلهم بالزهور والرياحين، وأن غزو العراق لن يكون أكثر من نزهة برية جميلة ورومانسية لجيوشهم الجرارة التى بلغت أكثر من ربع مليون جندي.

وأسرف جورج دبليو بوش على نفسه وظل يمسك- مع رفاقه من المحافظين الجدد- بزمام وسائل الميديا التى تحدثت طويلًا عن تحرير العراق وليس غزو العراق! وتحويل بلاد الرافدين إلى جنة للديمقراطية، كما أسرف فى الحديث عن زوال خطر الإرهاب والأمن والأمان الذى سيغلف أجواء العالم،وظل يروج أكذوبة أن غزوه للعراق سيوفر الأمن والاستقرار للشعب الأمريكي..

اليوم وبعد أن قدم بترايوس- قائد القوات الأمريكية فى العراق تقريره، وناقشة الكونجرس، تبين أن كل ما كان يقال عن الديمقراطية فى العراق ليس أكثر من أضغاث أحلام..

وأن أرض الهلال الخصيب قد تحول- بالفعل- إلى مقبرة للغزاة.. فالجنود الأمريكيون يتساقطون كالذباب برصاص المقاومة العراقية الباسلة..

وبعد أن حرّم دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى السابق أن يجرى لسان أحد بكلمة "انسحاب" أصبح الانسحاب واقعًا وقد جرى- إجبارا- على لسان الرئيس الأمريكى نفسه!!

صحيح أنه قد ساق مبررات (كاذبة) من قبيل ذر الرماد فى العيون، لكن النتيجة

واحدة وهى "انسحاب مخز" لنحو ثلاثين ألف جندى من قوات الاحتلال..

ليس من شك فى أن معارضة الديمقراطيين كانت حاسمة فى الكونجرس- لكن الفصل الأول فى هذا "التطور" فى المواقف يعود إلى رجال العراق البواسل الذين ضحوا- ولا يزالوا- بالغالى والنفيس من أجل استرداد حريتهم وأرضيهم (وما تزخر به من خيرات)

كان بوش ورفاقه يتذرعون- عندما يحمى وطيس المقاومة- بأن صدام وأولاده ورفاقه يقفون وراءها ويدعمونها بالمال والعتاد..

وكان طبيعيا أن تتكشف هذه الأكاذيب التى أدمنتها الإدارة الأمريكية.. فصدام ورجاله أصبحوا تحت التراب.. والباقى بل والخالد هو الشعب العراقى الذى لا يرضى الذل أو المهانة..

أنه درس بليغ من شعبنا العربى العراقى فى المشرق تستوعبه بوطنية وحماس كل الأجيال العربية من المحيط إلى الخليج..

فالمؤكد أن أمريكا تمر بواحدة من انتكاساتها الصعبة والمريرة، فإرادة الشعب العراقي- وحدها- هى التى هزمتها، وذابت الأكاذيب والدعاوى الأمريكية كما يذوب الملح فى الماء..

لقد تعمد الرئيس الأمريكى أن يذكر فى كلمته للأمة أن الوجود العسكرى سيظل مستمرًا فى العراق حتى بعد تركه مقعده فى البيت الأبيض.. وهذا أمر لا يعقله إلا مجنون، لأن القادمين الجدد- هم على الأرجح- "الديمقراطيون" الذين يعتبرون غزو العراق انتحارًا ويطالبون بانسحاب الجيوش ووضع أجندة محددة لتفاصيل الانسحاب فى أقرب وقت ممكن..

أريد أن أقول أن حديث بوش الابن عن بقايا العسكر الأمريكان فى العراق لا يمكن فهمه إلا على طريقة إنقاذ ماء الوجه.. أو على طريقة من يتحدث إلى ذاته وليس إلى شعب ذكي، ورأى عام أكثر وعيًا فكلنا يذكر أن ٧٠ مدينة كبرى فى العالم

قد شهدت فى الأعوام الماضية مظاهرات مليونية تندد بالحرب على العراق وتتهم أمريكا بالمروق والجنون.. وظن البعض أن مثل هذه المظاهرات لن تؤتى أكلها.. ولكنى أقول إن إعلان بوش الابن (بنفسه) عن قبوله فكرة الانسحاب الجزئى هى واحدة من نتائج هذا الرفض العالمى لمغامراته ومقامراته فى العراق..

المحقق أن إدارة بوش الابن تكتب بأصابعها واحدة من صفحات الخزى الأمريكي، تحت وقع الضربات الموجعة التى تأتيها من رجالات العراق الوطنيين الذين يرفضون الاحتلال، ويرفضون أشباه العراقيين الذين جاؤوا مع دبابات الاحتلال، فلقى نفر منهم نصيبه من الازدراء، والتهميش.. ليلحق به الباقون من الخونة الذين باعوا العراق إلى شركات النفط العالمية على حد تعبير أحدهم وهو أحمد الجلبى!!

العجيب والغريب أن إعلان بوش الابن موافقته على تقرير بترايوس هو هزيمة بكل المقاييس العسكرية والميدانية، لكن البيت الأبيض يصر على تصوير الأمر وكأنه انتصار لسياسته فى العراق..

فهذا البلد العربى الشقيق لم يصبح أكثر أمانا، والحرب الأهلية قد ضربت فى أطناب المجتمع العراقى وتعمق التميز الطائفى إلى حدود غائرة فى جسد العراق. وكان من تجلياته أسوار عازلة بين الشيعة والسنة شبيهه بالسور العازل فى الأراضى الفلسطينية المحتلة.. ولا يكاد يمر يوم دون اراقه دماء عشرات المدينيين الأبرياء..

والتهمة الكاذبة تتجه إلى ما يسمى بتنظيم القاعدة فى العراق.. مع أن الجميع يعرف أن الأسلحة المستخدمة هى أسلحة أمريكية وزعها الجيش الأمريكى على شيوخ القبائل.. ولا ننس أن قيادة الجيش أعلنت أن نحو ربع عتادها قد ضاع فى العراق!

وهى فرية أخرى تضاف إلى فريات كثيرة ملأت أمريكا بها العقل العربي..

ولأن إعلامنا- إعلام تابع- يقتات على ما تجود به آلات الكذب الكبرى

(وأقصد بها وكالات الأنباء العالمية) فتجده ينشر دون نقد أو تروى أو تمحيص ولذلك ليس غريبا أن تجد بعض وسائل الإعلام فى مصر والعالم العربى لا تختلف فى خطابها السياسى عن وسائل الميديا الأمريكية.. فالكل يتحدث اليوم عن نجاحات أمريكا فى العراق، مع أن المتابع العادى لمجريات الأمور يعلم جيدا أن ما يجرى فى مدن العراق هو مشاهد مختلفة لهزائم أمريكية.. وكان الأولى أن نفضح هذا الواقع الصعب الذى تعيشه السياسة الأمريكية فى العراق والمنطقة ولا نبتلع الطعم ونسير وراء طنطات إعلامية أمريكية لا هدف لها سوى تزييف الحقائق وإلباس الهزائم ثوب الانتصارات!

كان بوش وأعوانه يعتقدون أنهم جاؤوا إلى العراق لكى يبقوا، ولذلك لم يخجل الرئيس العراقى وقتها طالبانى عندما تحدث فى واحدة من زياراته إلى أمريكا عن رغبته فى أن تبقى فى العراق إلى أبد الآبدين ثلاث قواعد عسكرية كبرى من طراز قاعدة العيديد فى قطر.. كما تحدث المالكى رئيس الوزراء وقتها عن هلعه وفزعه.. إذا فكرت أمريكا فى الانسحاب، ولم تخجل حكومته أن تطلب رسميًا بقاء جيوش الاحتلال..

ورغما عن إرادة الجميع: أمريكا وطالبانى والمالكي.. فلقد قررت المقاومة العراقية الوطنية أن تبدأ الجيوش فى الانسحاب وهو ما حدث بالفعل.. شاهدنا هذا بأنفسنا....

لماذا ترفض أمريكا عقد مؤتمر دولى للإرهاب؟

بحثت فى رأسى طويلًا عن سبب معقول يجعل أمريكا لا تستجيب لدعوة مصر- التى أطلقتها ولا تزال منذ سنوات- لعقد مؤتمر دولى للإرهاب.

ولقد ازداد عجبى من موقف أمريكا لأنها- كما تزعم- مستهدفة إرهابيا، وتقود العالم ضمن إستراتيجية تقول فيها من ليس معنا فهو- بالضرورة- مع الإرهابيين!

ومطلب مصر- الذى تؤيده دول كثيرة- هو أن يتم- فى هذا المؤتمر الدولى المأمول- تحديد دقيق للإرهاب يتم بمقتضاه وضع "معايير" نقيس عليها الدولة الإرهابية والدولة غير الإرهابية.

"اللامبالاة الأمريكية" تجاه هذا المطلب تثير الانتباه وتدعو إلى التأمل خصوصا أن أمريكا تحث بعض الدول على عقد مؤتمرات (قُطرية) أو محلية تتمخض بالضرورة عن نتيجة مؤداها إقامة مراصد لمكافحة الإرهاب تكون مهمتها حصر الجماعات الإرهابية.. وعمل قوائم بأسماء المشتبه فى قيامهم بأعمال عنف وارتكاب جرائم.

وليس بوسع أحد إنكار أهمية هذه المراصد خصوصا بعدما تبين- بالدليل القاطع- أن الإرهاب لا وطن له، وهو "آفة" تعانى منها نظم وشعوب العالم، وليس حكرا على بلد أو دين أو عرق.. ولئن كان ضرب- فى وقت ما- دولا عربية وإسلامية، فهو ضرب- فى الوقت نفسه- دولا أوروبية وغربية، بل إن أمريكا- التى ترى نفسها سيدة العالم- لم تسلم من شرور الإرهاب.

وأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لا تزال شاخصة فى الأذهان.. ورغم ذلك فإن السؤال الذى يؤرقنى هو التالي:

* لماذا تصر أمريكا على رفض فكرة عقد مؤتمر دولى للإرهاب؟

يجيب عن السؤال المفكر الأمريكى لمعروف ناعوم تشوميسكى فيقول:

فإننا لو طبقنا المعايير الموضوعية التى نقيس بها الإرهاب على الدولة الأمريكية فستكون (هي) أكبر دولة إرهابية فى العلم!

ولأن الإدارة فى واشنطن تعرف ذلك جيدا، فهى تتعمد إهمال دعوة مصر المشار إليها، ودعوات أخرى مماثلة وتفضل عليها فكرة عقد مؤتمرات صغيرة داخل كل دولة على حدة.. يكون لها- بالضرورة- من حصادها النهائى نصيب.

مفكر فرنسى آخر يدعى بونيفاسى يرى أن أمريكا كانت طوال ربع القرن الأخير من القرن الماضى (القرن العشرين) حاضنة الإرهاب والإرهابيين.. فمن منا لا يعلم أن أسامة بن لادن نشأ وترعرع (إرهابيا) داخل أروقة جهاز الـ C.I.A الأمريكي، أما تنظيم القاعدة، فقد تمت هيكلته وتوزيع أدواره وتحديد مهامه عبر خبراء أمريكيين من طراز رفيع.

وبعد أن انتهت مهمته كان طبيعيا أن تلقى به الإدارة الأمريكية من النافذة! فانقلب السحر على الساحر واحتدم العداء بين (الحاضنة) الأمريكية وابنها (المدلل بن لادن) وكان علينا أن نصدق أن (القاعدة) هى التى خططت ونفذت أحداث ١١ سبتمبر.

أيا كان الأمر فالثابت أن هذه الأحد ث تستخدمها واشنطن (فزاعة) تخيق بها من تشاء وتعتبر نفسها دولة (جريحة) أصابها الإرهاب فى مقتل، وسحق أكثر من ثلاثة آلاف شخص من أبنائها فى هجومه على البرجين الشهيرين.. وبالتالى فمن حقها- هكذا ترى- أن تعلن الحرب على من تشاء وقتما تشاء بمقتضى نظرية الحرب الاستباقية التى اخترعتها عقب انهيار البرجين.

الغريب أن الإدارة الأمريكية أعطت لنفسها الحق فى الانتقام ممن تريد وقسمت العالم إلى فسطاطين، لفسطاطها الغلبة دون منازع أما الآخر فله وعليه اللعنة!

وبات مألوفا أن نسمع عن سجون سرية تنشئها أمريكا فى بقاع الدنيا (القاصى منها والداني) فيذكر تقرير أن القوات الأمريكية أقامت شبكة عالمية من السجون تضم ١٤ ألف معتقل منذ بداية الحرب على الإرهاب فى أفغانستان من بينهم ١٣ ألف معتقل فى العراق وحدها.

وإذا استدعينا إلى الذاكرة الجرائم التى ارتكبتها أمريكا فى سجن أبو غريب، ثم معتقل جوانتانامو، والفظائع التى شاهدها الناس عبر شاشات التليفزيون.. لتبين لنا أن العالم يعيش فى (غابة).. يتربع على عرشها الأسد الأمريكي.

وليس من شك فى أن أمريكا كرست هيمنتها على العالم، بالإرهاب، وكانت قد فشلت مرارا وتكرارا فى الوصول إلى هذه الغاية التى كانت تريدها منذ زمن..

فأوروبا كانت تتمرد بين وقت وآخر فى قيادة أمريكا للعالم، وتنسى أنها تحررت من طاعون النازية، وطاعون الشيوعية بمساعدة أمريكية.

فقط عبر إستراتيجية مكافحة الإرهاب عادت أوروبا وسلمت القيادة لأمريكا.

وحدث شيء قريب من هذا من جانب بقية دول العالم فأمريكا هى صاحبة الصوت الأعلى، وكل النظم تسعى إلى كسب ودها وإن كان ذلك لا يتحقق إلا من خلال الاصطفاف وراءها لمواجهة الإرهاب، فلا معنى للتقاعس كسبا "للجزرة الأمريكية" وخوفا من بطش "العصا"

أريد أن أقول فى النهاية إن اتهام الإسلام والمسلمين بالإرهاب هو أمر طائش ولا معقول.. لأن الإسلام هو الذى ينادى بالوئام والسلام وقبول الآخر، أما أمريكا فهى التى ترى صدام الثقافات وتضاد الحضارات.. بل وتذهب إلى أقصى الطريق فتسد بنظرية نهاية التاريخ كافة الطرق.وكأنه ليس فى الإمكان أبدع مما تفتق عنه العقل الأمريكى مع أن الصغير قبل الكبير يعلم أن الحضارة الإنسانية هى محصلة

جهود بشرية متواصلة ولا فضل لجنس على آخر.. فالكل سواء.

- باختصار.. لقد حققت أمريكا (بالإرهاب) ما عجزت عن تحقيقه بالحروب والدبلوماسية..وهو ما يعنى أولا وأخيرا أن الإرهاب صناعة أمريكية بامتياز!

معنى الغضب الأمريكي؟

يخطئ من يعتقد أن الأزمة التى يتحدث عنها البعض بين أمريكا وإسرائيل هى أزمة جادة.. صحيح أن أمريكا غاضبة ليس لأن إسرائيل رفضت الأخذ بوجهة نظر الرئيس أوباما الخاصة بوقف الاستيطان وإنما لأن إسرائيل تحدثت عن بناء ١٦٠٠ مستوطنة فى أثناء زيارة نائب الرئيس الأمريكى السيد بايدن!

بكلمة أخرى لقد انزعجت أمريكا لأنها شعرت بأن إسرائيل لا تعرها الاهتمام الواجب.. وربما قد تسببت فى إحراجها ونالت من هيبة الدولة الكبرى.. لكن الدولة التى ملأت الدنيا ضجيجا بعد مجيء أوباما رئيسا وتحدثت عن أنها قادرة على حل مشكلة الشرق الأوسط.. وارتفعت بالشعوب فى المنطقة إلى أعلى عليين ثم تبين أن إسرائيل قد ضربت عرض الحائط بكلام و(وعود) أوباما..

المدهش والمؤلم فى الوقت نفسه أن كثيرين فى المنطقة العربية يراهنون على الأزمة الأمريكية- الإسرائيلية.. وفى اعتقادهم أن أى خلاف بين واشنطن وتل أبيب يصب بالضرورة فى مصلحة العرب.. هى الفكرة نفسها التى تحكم رؤية المنطقة العربية بشأن أوروبا فترى حكومات هذه المنطقة أن على أوروبا أن تختار بين العرب وإسرائيل.. وغاب عن بالهم أن أوروبا لا يمكن أن تتخلى عن الدولة العبرية تحت أى ظرف.. فهى التى خلقت هذه الدولة (من عدم) ووقفت مع وعد بلفور.. ودعمت إسرائيل دعما لا محدودا عبر تعويضها عن أزمة الهولوكست.. وتتحدث دوائرها عن أن إسرائيل هى الدولة الوحيدة التى تربطها صلات إستراتيجية معها، وهى الحليف الوحيد فى الشرق الأوسط لأوروبا.. ولذلك فكل من يعتقد أن الخلاف أو الخصام بين أوروبا وإسرائيل يصب فى مصلحة العرب فهو خاطئ..

والشيء نفسه بالنسبة لأمريكا لأن هيلارى كلينتون وزير الخارجية أكدت فى الحديث عن أن أمن إسرائيل هو جزء من أمن أمريكا والعالم..

بعد ذلك، نجد غريبا كل من يتحدث عن أزمات بين إسرائيل وأوروبا أو أمريكا.. ولابد أن نعترف بأن غضبة أمريكا الحالية من إسرائيل ليست انتصارا للعرب ولقضيتهم.. وليست من أجل سواد عيون الفلسطينيين، وإنما هى سحابة صيف كما يقول نيتانياهو، الذى قلل كثيرا من هذه الأزمة فى اجتماعه الوزارى الأسبوعي..

أود صادقا أن نرى السياسة الإقليمية والدولية بميزانها الصحيح وهو ميزان المصلحة وأن نكف عن النظر إلى الأزمات من منظور عاطفى وجدانى لا معنى له فى دنيا التشابكات الدولية.. متى سنتعلم من دروس التاريخ.. يبدو أن شيئا من ذلك لن يحدث!!



القسم الثالث

خصخصة السياسة الخارجية الأمريكية

أكذب رجل فى العالم!

مهما كانت الدول "كبيرة" إلا أنها "تتمدد" "وتنكمش" بحسب قامة ووزن ومصداقية الشخص الجالس على مقعد الحكم فيها..

هذا الدرس- الذى يعرفه الصغار والكبار- فى العلاقات السياسية الدولية، لو طبقناه على جورج دبليو بوش سنجده ينطبق تماما، فالرجل اعتلى مقعد الرئاسة فى البيت الأبيض وكانت أمريكا متربعة على عرش العالم.. فحائط برلين قد انهار، والإتحاد السوفيتي- المناوى الكلاسيكى لأمريكا- قد تفكك، وحلف وارسو قد طويت صفحته، وانعقدت قيادة العالم للسيد الأوحد (أمريكا..)

وبمجيء بوش الابن سارت الأمور فى اتجاه آخر، فتخبط الرجل فى سياساته الخارجية تخبطا شديدا، ودخل مغامرات عسكرية هوجاء، فى أفغانستان ثم العراق، وأمام فشله فى هذا المكان أو ذاك أضطر أن يكذب فاستحق أن يحصل على لقب أكذب رجل فى العالم!!

ورغم إحكام قبضته على وسائل الميديا من خلال مجموعته السياسية- مجموعة المحافظين الجدد- إلا أن كل شيء بات معروفا- وأكاد أقول مفضوحا- لأن الحرب فى أفغانستان لم تضع بعد أوزارها كما يقول ويزعم وفشله فى العراق بات يعرف تفاصيله الأعمى والأعشى والبصير على السواء وجنوده يُقتلون، وتسفك دماؤهم، وباتوا يتساقطون كالذباب برصاص المقاومة العراقية (الباسلة).. وتُعّد مسرحيات الحكم التى دبجها مستشاروه الأمريكان والمتأمركون بدءا من خبير الإرهاب "جارنر" وعبر المخرب الدولى "بريمر" وصولًا إلى إياد علاوي، والمالكي.. كلهم شخوص فى مسرحية رديئة كان من أبرز مشاهدها أن العراق الذى كان صاحب

ثانى مخزون نفطى فى العالم، أصبح شعبه يتسول لقمة عيشه ويتنادى الفنانون لإقامة الحفلات لجمع تبرعات من أجل أطفاله!!

أما السلام العالمى فكان المتضرر الأكبر من مغامرات بوش الابن فاعترف الرئيس الفرنسى جاك شيراك- صادقا- ذات يوم وقال: إن العالم لم يصبح أكثر أمانًا بعد غزو العراق.. لقد كذب علينا الرئيس الأمريكي!

والصحيح- والكلام ما زال لجاك شيراك- أن احتلال العراق قد فتح أبواب جهنم على المنطقة والعالم.

ومن فضائح بوش أنه يّدعى أنه حارس الديمقراطية، وحامى حمى حقوق الإنسان.. ورافع لواء الشعوب وحقها 'السياسى فى أن تقرر مصيرها.. بينما وقائع الاعتداء الإنسانى على العراقيين فى سجن أبو غريب لا تحتاج إلى دليل آخر يؤكد أن الرئيس بوش كاذب.. وإذا انتقلنا إلى مشاهد معتقل جوانتنامو لاكتشفنا أننا أمام "مجرم حرب" بحسب معايير اتفاقية جنيف الرابعة، لأن بوش الابن كسّر كل القواعد واعتدى على البشر وأمر باعتقالهم وتعذيبهم دون تحقيق أو مساءلة وكأنه يحكم العالم بقانون الغاب أو الكاوبوي..

أما كراهيته للديمقراطية فلا تحتاج إلى برهان بعد ما تآمر لطرد حماس من مقعد الحكومة فى فلسطين المحتلة، بعدما خطط لاغتيال الحريرى فى لبنان، وبنظير بوتو فى باكستان.. والبقية تأتي!

ثم خرج علينا- بدراما كريهة- أطلق عليها اسم مؤتمر أنابوليس، لم تجن منها المنطقة سوى الحنظل لأن الشيء الوحيد الذى حققه هذا المؤتمر هو أنه أعطى إسرائيل شرعية قتل حماس والشعب الفلسطيني.. ولم لا، ألم تقر الـ ٨٥ دولة وهيئة دولية وإقليمية (المشاركة فى هذا المؤتمر) أن حماس والمؤيدين لها باتوا أشبه بدار الحرب!

أما فتح والقلة المساندة لها فهى وحدها دار السلام!

ورغم مزايدات بوش ورفاقه من رؤساء الدول الضريبية فلقد ظهر أنابوليس كطفل مات لتوه فور ولادته.. لأن الاستيطان الإسرائيلى الذى أوحى المؤتمر بتجميده لا يزال نشطا وفعالًا، ويهودية الدولة العبرية التى أوحى المؤتمر باستبعادها، أصبحت واقعًا يقره – ويحفل به- الرئيس الأمريكى نفسه فى جولاته وتصريحاته.. أما قضايا الحل النهائي، التى كان مأمولًا تناولها فى أنابوليس أو غيره، فلا أثر لها فى الأوراق أو الذاكرة..

وهكذا فشل أنابوليس فى أن يكون مجرد مرجعية تُضاف إلى المرجعيات العبثية السابقة منذ مدريد وعبر أوسلو وصولًا إلى كامب ديفيد.. وبهذا المعنى أصبح جورج دبليو بوش الرجل الفاشل بامتياز..

وإذا تأملنا الأيام الثمانية التى أمضاها جولته الشرق أوسطية وكان- بحسب بعض التغييرات- فى معظمها ثملًا لا يقدر على التركيز أو التفكير لاكتشفنا عجبا. فالرجل عندما اختار إسرائيل لتكون محطته الأولى قد حكم على جولته بالفشل منذ البداية، كما فضح نفسه لأنه كان أشبه بمن ذهب إلى "سيده" يسأله النصيحة: ماذا سيفعل، وما هو برنامج الجولة، وفيم يتحدث، وماذا عساه يقول..

والحق أن جورج دبليو بوش- كان هذا هو حاله فعلًا لا قولًا، لأن مطالب إسرائيل هى التى رددها فى كل المحطات التى توقف فيها وهي:

تحريض الدول التى زارها على الهرولة تجاه إسرائيل (تطبيقيًا) ثم استعداء المنطقة على إيران باعتبارها- من وجهة نظره- الدولة التى تُصدر الشر والإرهاب إلى العالم..

صحيح إن الجولة من هذه الناحية قد فشلت فشلًا ذريعًا لأن العقل السياسى العربى قد تجاوز مرحلة المراهقة منذ زمن، وأن لا إسرائيل ولا أمريكا هى التى تختار للدول العربية خصمها أو عدوها.. وإن صلح هذا المبدأ فى الماضي، فالحق أنه لم يعد كذلك فى الحاضر..

وللإنصاف يجب أن نذكر أن النتيجة الواحدة- الإيجابية- فى جولة بوش الشرق أوسطية أنها كانت أشبه "ببروفة" تختبر فيها إسرائيل جورج دبليو بوش وما إذا كان سيصلح ليشغل منصب مبعوث إسرائيى فى الشرق الأوسط على غر ر المنصب الذى تولاه صديقه تونى بلير كمبعوث للرباعية فى الشرق الأوسط..

أريد أن أقول إن الإيجابية الوحيدة فى هذه الجولة أن الرئيس الأمريكى أطمأن على مستقبله الوظيفى بعد أن يترك مقعده فى البيت الأبيض مع نهاية العام (٢٠٠٨) وعندما يتحول سيد البيت الأبيض إلى مجرد مبعوث شخصى لإسرائيل- وهذا هو واقع الحال- تكون قامة الدولة العظمى- فى العالم- وهى أمريكا قد صغرت وتضاءلت حتى تصبح بمحاذاة الحذاء!

جائزة نوبل فى الكلام!

إذا كان الفائز بنوبل للسلام (٢٠٠٩) أقصد الرئيس الأمريكى باراك أوباما قد عبر عن دهشته من هذا الفوز، فماذا عسانا نقول؟

الرجل يرى أنه لم يفعل ما يستحق عليه المكافأة لذلك ذهب- فى تفسيره- إلى أن الفائز هو الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها أقوى دولة فى العالم.. وكل دوره هو أن قام باستلام الجائزة..

إنصافا، أقول إن أوباما قد دافع عن نفسه ربما من حيث لا يريد الدفاع.. لذلك طالب الكثيرون برقبة رئيس لجنة الجائزة التى كافأت أوباما على (لا شيء!).

فالرجل جلس فى مقعد الرئاسة الأمريكى فى البيت الأبيض فى يوم ٢٠ يناير ٢٠٠٩.. وإغلاق باب الترشيحات لجائزة نوبل كان فى يوم ١ فبراير.. والسؤال هو: ما هى الأفعال العظيمة التى استطاع أوباما أن يقوم بها خلال عشرة أيام وبالتالى أستحق أن ينال عليها جائزة نوبل للسلام..

هناك- فى الواقع- تفسيران لا يخلوان من تهكم واستخفاف.. الأول هو أن لجنة الجائزة اختارت أوباما للفوز بها نكاية (وانتقامًا) من جورج بوش الابن وإدارته السابقة التى ملأت الأرض ظلما وجورًا وأوقعت ملايين الضحايا فى العراق وأفغانستان..

الثانى أن اللجنة كافأت أوباما على برنامجه الانتخابى الذى أسرف الحديث فيه عن المبادئ، وقضايا الحب والخير والجمال.. وإذا كان هذا صحيحا، فهذا معناه أنها المرة الأولى التى تمنح الجائزة عن برنامج انتخابى ليس أكثر من وعود قد تصدق وقد لا تصدق..

وفى كل الأحوال لقد نال هذا الفوز من قيمة جائزة نوبل بشكل عام وجائزة نوبل للسلام بشكل خاص، وإذا تذكرنا أن هذه الجائزة قد حصل عليها بيجن، وشيمون بيريز (قتلة) أطفال فلسطين أدركنا على الفور أنها جائزة بلا معنى!

وقديما كان يقول الفيلسوف المصرى الراحل عبد الرحمن بدوى: إن أهم ما فى هذه الجائزة هو (قيمتها المالية).. قال ذلك فى حديث معى عن الدلالات السياسية للجائزة وهبوط قيمتها الأدبية والمعنوية..

وقد يقول قائل: إن أوباما حصل عليها لأنه تحدث حديثا معسولًا فى تركيا، وفى جامعة القاهرة (بعد ذلك) ورفع شعارات صفق لها الجميع وصدقتها معظم الشعوب خصوصًا عندما شدد على ضرورة فتح صفحة جديدة من العلاقات مع العالمين العربى والإسلامى تقوم على أساسين: الاحترام المتبادل والمصلحة المشتركة.. ولذلك عندما أعلن بأعلى صوته ضرورة التزام إسرائيل بمبدأ وقف الاستيطان كمقدمة تسبق استئناف المفاوضات.. والثابت عملًا أن شيئًا من ذلك لم يحدث، فلا الصفحة الجديدة بدأت.. ولا لبت إسرائيل النداء.. وهكذا يصدق القول إن أوباما حصل على جائزة نوبل فى الكلام وليس السلام!

ماذا يضيف مقعد دائم "لمصر" فى مجلس الأمن؟!

ثمة تعبئة دبلوماسية وشعبية لا تخطئها العين بشأن اكتساب مصر العضوية الدائمة فى مجلس الأمن فى إطار "المطالبة الدولية" بإصلاح الأمم المتحدة، وتوسيع مجلس الأمن ليضم أعضاء جددًا وكسر احتكار الدول الخمس الكبرى "أمريكا- فرنسا- بريطانيا- روسيا- الصين" لحق الفيتو الذى تتمتع به فقط الدول دائمة العضوية فى المجلس.

ولا غبار على أن تدخل مصر هذا السياق الذى تتبارى فيه دول فى القارة الأفريقية للفوز بهذا المقعد الدائم مثل نيجيريا، وجنوب أفريقيا وليبيا باعتبار أن إصلاح المنظمة الأممية العالمية يجب أن يراعى فيه التمثيل النسبى للقارات بعدما تبين أن قارة أوروبا تحتكر وحدها ثلاثة مقاعد داخل مجلس الأمن بينما قارة أفريقيا لا وجود لها!!

لكن السؤال: هل يستحق هذا المقعد الدائم الذى تتطلع إليه مصر "ودول أخرى" كل هذا العناء؟ وهل الأمم المتحدة "فاعلة ومؤثرة" إلى الحد الذى يزج بالدول للدخول فى "معركة" من أجل أن تكون بين أعضائها الدائمين فى مجلس الأمن؟

فى اعتقادى أنها- حسبما يبدو- ستكون معركة ضاربة ومنافسة شرسة حول "لا شيء" أو بالأحرى حول "شيء" أهون وأصغر من أن تثار حوله المعارك.. فالأمم المتحدة- بقضها وقضيضها- تعيش أزمة خانقة فى ظل الهيمنة الأمريكية ولا صوت فيها أعلى من صوت الولايات المتحدة إلى حد أن البعض بات يطلق عليها- باطمئنان- اسم الأمم المتحدة الأمريكية للدلالة على أنها ليست أكثر من مكتب تابع

لوزارة الخارجية الأمريكية تأتمر بأمر وزير الخارجية الأمريكى سواء كان باول أو كونداليزا رايس أو حتى هنرى كيسنجر فى زمانه!

فإذا كان هذا هو حال الأمم المتحدة فلماذا التنافس على الانخراط فى عضوية دائمة "أو غير دائمة" فى مجلس أمنها؟!

نحن نعلم أن واشنطن تتعمد- منذ فترة- تهميش الأمم المتحدة وقصر مهامها على الجانب الإنسانى بمعنى ألا يزيد دورها عن دور عربة الإسعاف التى تهرع إلى مكان الحادث لنقل المصابين إلى أقرب مستشفى ونعلم أيضا- بالأدلة والبراهين القاطعة- أن الأمم المتحدة- والحالة هذه- ليست إلا حجرة تعلن فيها القرارات المأخوذة سلفا فى البيت الأبيض وإن الإدارات الأمريكية المتعاقبة لا تقيم وزنا- لا من قريب أو من بعيد- لقرارات الأمم المتحدة ما دامت تخرج عن "النص الأمريكي" وفى هذا الشأن نتذكر أن هناك أكثر من مائة وخمسين قرارا صدرت عن الأمم المتحدة لصالح القضية الفلسطينية لم ينفذ منها قرار واحد!

ولم ننس بعد أن دولة دائمة العضوية "مثل فرنسا" عندما رفضت توجيه ضربة عسكرية "أمريكية" إلى العراق إلا بموافقة الأمم المتحدة.. لم تأبه واشنطن لمطلب فرنسا، وضربت عرض الحائط بالمنظمة الدولية "الأمم المتحدة" والمجلس الأمنى وبالأعضاء الدائمين للمجلس ووجهت ضربتها "المخططة سلفا" واحتلت العراق عيانا جهارا.. والمؤسف أن الأمم المتحدة عادت واعترفت بما رفضته سابقا وهو حالة الاحتلال الأمريكى للعراق!!

إذن ما جدوى الدخول فى صراعات ومنافسات مع الدول الأخرى فى إفريقيا إذا كانت الأمم المتحدة فى العرف الأمريكى لا تساوى جناح بعوضة؟!

وما معنى مجلس الأمن الذى تريد مصر أن تكتسب عضويته الدائمة، وهو- قبل كل شيء وبعد كل شيء- ليس أكثر من "مكتب" صغير يضم بعض الموظفين الذين لا يغمض لهم طرف عن رغبات أمريكا ولم لا، وكل مهمتهم هى تنفيذ ما تريده

واشنطن وليس يهم أن كان ما تريده واشنطن يتفق أو يتعارض مع القانون الدولى والأعراف الدولية.. أو ما يسمى بالشرعية الدولية!!

إن القاصى والدانى يعلمان أن أمريكا قد أطلقت رصاصة الرحمة على الأمم المتحدة منذ أحداث سرايفو فى يوغسلافيا السابقة واستخرجت لها شهادة الوفاة مع احتلالها للعراق.

والحق أن واشنطن قد فعلت ذلك مع سبق الإصرار والترصد، فبدأت بتهميش الأمم المتحدة وتضييق الخناق عليها بل دعت الموظفين الدوليين العاملين فيها إلى الذهاب إلى الجحيم وطالب نفر من دبلوماسييها بنقل مقر الأمم المتحدة خارج أمريكا.. ثم نفخت فى مجموعة الدول الثمانى الصناعية الكبرى من روحها لتجعلها البديل المباشر لمجلس الأمن.

وهانحن نشاهد أن المرجعية الأصلية فى العالم اليوم لم تعد الأمم المتحدة وإنما مجموعة الـ٨ "من الناحية السياسية" أما حلف الناتو الذى يضم ٢٦ دولة اليوم فلقد أصبح المرجعية العسكرية فهو مرشح للقيام بأدوار فى الشرق الأوسط وعملية السلام والتعاون الأورومتوسطي!

وسؤالى الآن:

أبعد كل هذا التقزيم للأمم المتحدة.. ترتفع أصوات لتحشد الإمكانات البشرية وغير البشرية للانضمام إلى هذه المنظمة التى أصبحت- كما نرى ونشاهد- فى حكم المتوفاة أو الميتة وما جدوى الانضمام إلى جثة لا حراك فيها.. أو على أقصى تقدير ما جدوى الانضمام إلى مكتب تابع للخارجية الأمريكية.

فى تقديرى إن هذه الضجة المثارة حول انضمام مصر إلى مجلس الأمن ينطبق عليها المثل الشعبى "الجنازة حارة.. والميت كلب!" لأن مصر تبقى أكبر من منظمة مهلهلة ولا صوت لها كحال الأمم المتحدة

معادلات سياسية مغلوطة

فى إطار توزيع الأدوار بين أمريكا وأوروبا نجد أن الرئيس أوباما أخذ على عاتقة الترويج ليهودية الدولة الإسرائيلية.. وهو أمر خطير لأنه يعنى بشكل مباشر طرد مليون ونصف مليون يهودى من الأراضى التى تعتبرها إسرائيل حدودها.. وبما أنهم ليسوا يهودًا فلا مكان لهم!..

أما أوروبا فلقد تولت مهمة أخرى وهى الاعتراف بالقدس- كل القدس- عاصمة أبدية لإسرائيل.. هذا على الأقل مأمنهم من تقديم وزير خارجية بريطانيا الذى يقول: فى حال فوز حزب العمال فى الانتخابات المقبلة ستكون الخطوة الأولى التى يتخذها (خارجيا) هى نقل سفارة بريطانيا من تل أبيب إلى القدس..

وعلينا أن نأخذ هذا التقديم على محمل الجد.. كما علينا أن نتذكر وعد بلفور البريطانى الذى صدر فى نوفمبر عام ١٩١٧ ولم يأخذه العرب فى البداية بشكل جدي، ولكنه تحقق وكان أول الخيط (فى بكرة) التعقيدات التى تعيشها المنطقة والقضية الفلسطينية حتى الآن..

أوروبا ترى إسرائيل هى الحليف الإستراتيجى الأول لها فى المنطقة، وتؤكد أن أمنها هو جزء لا يتجزأ من الفضاء الأوروبي، ولذلك حرصت على توقيع نطاق الشراكة معها، وأدخلتها ضمن دائرة سياسة الجوار وإبان حرب إسرائيل على غزة كانت إجراءات ترفيع مستوى العلاقات مع إسرائيل تتواصل حلقاتها بحيث تصبح الدولة العبرية- بمقتضاها- شريكا أصيلا فى رسم سياسات حوض البحر المتوسط والفضاء المتوسطى بشكل عام.

بمعنى آخر إن العلاقات الأوروبية- الإسرائيلية تمر بواحدة من أزهى مراحلها خصوصًا بعد مجيء ساركوزى فى فرنسا والسيدة ميركل فى ألمانيا..

وليس كافيا أن أمريكا ترتبط ارتباطا عضويًا بإسرائيل ولا يغرنّك تغيير الرئاسات أو القيادات، فليست هناك فروق كثيرة بين أوباما وجورج دبليو بوش، كما لم تكن هناك فروق بين ريجان، وبوش الأب، وكلينتون...

فالمؤسسات الأمريكية تتجه مؤشراتها جميعا باتجاه إسرائيل.

وأحسب أن هذه النقطة غائبة إلى حد ما عن العقل السياسى العربى الذى يظل مُكبلًا بأفكار لم تتزحزح قيد أنملة على مدى تاريخ الصراع مع إسرائيل وهو ما يزيد عن ٦٠ عامًا. إن التعامل مع الغرب(أمريكا وأوروبا) من منطلق (إما نحن وإما إسرائيل) هى معادلة خاطئة فإسرائيل تحتل مكان القلب فى العقل السياسى الغربي، ويبقى أن تتكيف مع هذه الحالة دون تهوين أو تهويل.. فالغرب له مصالح لدينا.. وعلينا تحريك ذلك الأمر واستخدامه (ورقة) ضمن قاعدة اللعب بالأوراق.

"الجسر" حياة الرئيس الأمريكي

يا الله! يبدو أن حياة الرئيس الأمريكى باراك أوباما ستظل ملهمه للكثيرين الراغبين فى الكتابة عن الجالس على مقعد رئيس العالم، فلقد صدر قبل فترة أكثر من كتاب عن أوباما ومعظمها مُشبع بالأمل فى هذا الرجل الملوّن الذى يحكم أمريكا لأول مرة فى تاريخها المعاصر.. ورغم كثرة ما نشر عن هذا الرجل إلا أن مغامرة الكتابة عنه قد استهوت الكاتب الشهير ديفيد ريمنيك رئيس تحرير مجلة نيويوركر فوضع كتابا جديدا عن حياة أوباما بعنوان: الجسر- حياة وصعود باراك أوباما. والاسم (الجسر) جاء من واقعة تاريخية لم تغب بعد عن أذهان الكثير من.. ففى عام ١٩٦٥ كاد شخص يدعى جون لويس مظاهرات تطالب بحق الأمريكيين السود فى الانتخاب.. وقد نقل الكتاب- الذى نتحدث عنه- قول ديفيد لويس وهو إن باراك أوباما هو من يقف على نهاية هذا الجسر الذى يقع فى منطقة سيلما بولاية ألاباما وهو المكان الذى شهد المظاهرة..

أيا كان الأمر، فالثابت عملًا أن هذا الكتاب يختلف كثيرا عن الكتب التى صدرت حول أوباما لأنه ثرى بالتفاصيل الشخصية والاجتماعية والسياسية واعتمد بالدرجة الأولى على جملة من الحوارات التى أجراها المؤلف مع أوباما ونفر من عائلته وعدد من أصدقائه ومنافسيه على السواء..

الأهم أن هذا الكتاب يستمد شهرته ليس فقط من الدعاية الصاخبة التى سبقت عملية النشر، وإنما أيضا فى عدد صفحاته الـ٦٧٢ صفحة، وأسلوبه الذى يوصف بالرصد التقريرى الكاسح لحياة أوباما والتى امتزجت كثيرا بالحملة الانتخابية التى خاضها إبان الرئاسيات.. ولقد أفرد المؤلف صفحات وصفحات لما قالته منافسته

الشهيرة السيدة هيلارى كلينتون ومنها أن أوباما (ضعيف) فى السياسة الخارجية، وهو فى حاجة إلى دروس فى أسس العلاقات الدولية!.

أضيف أيضا أن سبب الضجة المصاحبة لصدور هذا الكتاب حاليا فى أمريكا، ثم فى بريطانيا لاحقًا هو أن المؤلف هو ديفيد ريمنيك الذى سبق أن نشر كتابين حققا شهرة ذائعة الأول بعنوان: "فبرلينين" يشرح فيه أسباب انهيار الاتحاد السوفيتى السابق، والثانى كتاب الملاكم العالمى محمد على كلاى الذى تصدى فيه لسيرته الذاتية بكل ما فيها من دراما، وتناقضات..

"الجسر" كتاب يكشف أسرارًا فى حياة الرئيس الأمريكى ويقدمه كانسان إلى سائر البشر، يخطئ ويصيب وليس معصومًا من الوقوع فى أخطاء وارتكاب جرائم!

حالة "التماهى مع الأمريكان".. ما هى أسبابها؟!

تدهشنى كثيرًا حالة التماهى التى تعيشها المنطقة العربية مع السياسات العالمية إلى حد بات يصعب فيه الفصل بين ما هو عربى وما هو غربي. فمثلًا قبل سنوات صدر عن الكونجرس قانون يعرف بقانون محاسبة سوريًا ضيق الخناق كثيرًا على هذا البلد العربى ووضع قيودًا صارمة على تحرك السوريين داخل أمريكا، كما جمد أموالًا ولا يزال، ووصل هذا القانون إلى حد اعتبار سوريا حشرة سوداء لابد من سحقها! فى البداية كان الموقف العربى رافضًا لهذا القانون وأبدت بعض الدول العربية امتعاضها من تداعيات هذا الاستعداء الأمريكى ضد سوريا، لكن رويدًا رويدًا وجدنا الموقف العربى يتماهى مع الموقف الأمريكى وكأن قانون محاسبة سوريا يمتد ليغطى المنطقة العربية، شيء آخر يتعلق بسوريا وهو اتهام أمريكا لها بعرقلة الحل والاستحقاق الرئاسى فى لبنان، وكالعادة أخذت بعض الأطراف العربية موقفًا نقديًا من واشنطن، واعتبرت ذلك شكلًا من أشكال التزيد والادعاء، والتوريط، لكن رويدًا رويدًا وجدنا توريط معظم الدول العربية تظهر ميلًا للرؤية الأمريكية ..حتى بات الموقف العربى صورة أخرى من الموقف الأمريكى وإذا انتقلنا إلى فلسطين المحتلة، وجدنا المشهد يتكرر بحذافيره، فحماس اختارها الشعب بانتخابات أشرف عليها برلمانيون وسياسيون غربيون وأوروبيون، وصفق لها الجميع فى المنطقة العربية لأن فوز حماس تم بإرادة شعبية، وبممارسة ديمقراطية أشاد بها القاصى والداني. لكن رويدًا رويدًا قلبت أمريكا وأوروبا ظهر المجن لحماس، وطالبت بالطلاق البائن، وبعد مد وجزر تحقق ذلك، ووجدت حكومة إسماعيل هنية نفسها خارج مقاعد السلطة. واتسعت دوائر الاستعداء بين الفلسطينيين وبعضهم البعض وتقارب كثيرًا الخطابان العربى والأمريكى إلى حد التماهى !وفى

دارفور لم يختلف الأمر كثيرا، ورفض العرب فى البداية المطلب الأمريكى والأوروبى بشأن نشر قوات دولية، ومع الإصرار أو بالأحرى العناد الغربي، رضخ العرب، وأصبحوا بدورهم يطالبون بالوجود العسكرى الأممى وهو نفس مطلب القوى الكبرى. السؤال الآن: إذا كان الحال يبدأ بالاعتراض ثم ينتهى بالرضوخ والتماهى ففيما إذن كل هذه الخطابات السياسية الرنانة والساخنة والتى لا مردود لها فى التحليل النهائي! ثم هناك سؤال آخر:" من يرسم سياساتنا العربية هل هم العرب أنفسهم من منطلق قناعات وثوابت لا تتزحزح ومصلحة عربية كبرى تفرض نفسها على الجميع، أم أمريكا وأوروبا اللتان قسمتا العالم العربى بمقتضى سايكس بيكو جديد ووزعت مناطق النفوذ، والسلطة فيما بينهما، وما علينا سوى الانصياع والتنفيذ. للإنصاف يجب أن نذكر أن هذه الممارسات تملأ النفس بالقنوط، وتغلق أمامنا كل أبواب الأمل فى كلمة عربية سواء نواجه بها غطرسة الغرب وهيمنته التى باتت قدرا- أو هكذا تبدو -محتومًا لا مهرب منه. وقديمًا تحدثت أوساط أكاديمية غربية تتهم الحكومات العربية بأنها أكبر مستفيد من استمرار حالة الاحتقان بسبب الأزمات التى تندلع فى المنطقة، وذكرت أن الحكام العرب على وجه التحديد لا يريدون حلًا للقضية الفلسطينية، وهم أكثر المرحبين بأزمة لبنان وبأزمة السودان، وبأزمة العراق، لأنهم يستمدون من هذه الأزمات سبب وجودهم، وبقائهم فى السلطة وتذكر هذه الأوساط فى موطن اتهامها، أن الحكام العرب قد أدمنوا التصريحات بشأن حلول لا وجود لها سواء بالنسبة للقضية الفلسطينية أم بالنسبة للأوضاع المتأزمة فى لبنان. والمؤسف أن حالة التماهى التى نتحدث عنها أصبحت قاسمًا مشتركًا ليس فقط بين الموقف من جميع القضايا والأزمات لكن أيضًا باتت عتبة أساسية تعدها -بالضرورة- كل الدول العربية ..حتى أصبحت السياسات العربية تسير معصوبة العينين وراء السياسات الأمريكية والأوروبية. فمثلًا اليوم خف الحديث أمريكيًا عن الديمقراطية، وحرية التعبير، وإتاحة الفرصة لحركات اجتماعية وسياسية ودينية لكى تشارك سياسيًا فى الحياة العامة فى المنطقة العربية.. وكلنا يذكر أن هذا الأمر كان مطلبًا أمريكيًا تلوكه ألسنة الأمريكيين والمتآمرين ليل

نهار، وظلت واشنطن تجعله سيفًا مسلطًا على رقاب الحكام العرب ترهبهم به، ثم اختفى هذا الخطاب السياسى الأمريكي وكأنه كان فزاعة ألقت الرعب فى قلوب حكام المنطقة ..بعدها مباشرة حدثت هذه الحالة من التماهى مع سياسات الغرب.
أريد أن أقول: إن حالة من انعدام الثقة يعيشها العرب فهذا البلد يترصد الآخر، وذاك البلد يتوجس من الدول المجاورة وبات الهم وكأنه عربى بامتياز ونسينا أن هذه الحالة من السيولة التى يعيشها عالمنا العربى لم تظهر فجأة وإنما أعد لها وأنضجتها على نار هادئة أطراف دولية من واقع خريطة بات يدهشنا ويفجعنا -فى آن واحد- أنها لم تعد تظهر على خريطة لصراع وكأنها أصبحت فجأة بردًا وسلامًا.. وتحولنا نحن العرب إلى أعداء ألداء لبعضنا البعض. إنها واحدة من تجليات الانتكاسة العربية التى أصبحت سماء تظللنا وبتنا نقرأ مفرداتها فى أحداث لبنان والعراق وفلسطين والسودان.. والبقية تأتي!

ورقة من ملفات البنتاجون!

الثابت أن أزمة إيران جيت فى منتصف الثمانينيات التى كادت تزعزع النظام السياسى الأمريكى برمته هى التى فتحت الطريق أمام ما يعرف اليوم فى أدبيات السياسة الأمريكية المعاصرة بخصخصة السياسة الخارجية.. وتعنى أن البنتاجون قام بعملية خصخصة لبعض أجهزته أو بالأحرى نقل جزءًا كبيرًا من عملياته الخارجية إلى شركات خاصة حتى لا يجد نفسه - فى حالة الفشل أو افتضاح الأمر فى موقف المساءلة من قبل لجان الكونجرس كما حدث عقب أزمة إيران جيت أى أن هذه الشركات التى يسميها البعض بشركات الحروب الخاصة ستكفل - والحالة هذه - للبنتاجون الغطاء المثالى الذى يجعله يقود عملياته الخارجية الحساسة بعيدا عن أعين وسائل الإعلام والكونجرس الذى يخول له الدستور حق مراقبة السياسة الخارجية الأمريكية ومناقشة تفاصيلها..

وبمساعدة جهاز المخابرات المركزية، يتم توفير الأموال اللازمة للإنفاق على أنشطة ومهام هذه الشركات، وإذا علمنا أن مديرى هذه الشركات وكبار الموظفين فيها ليسوا فى الأغلب سوى ضباط على المعاش، أو موظفين سابقين فى الـC.I.A أو البنتاجون - أو كوادر متخصصة كانت تعمل ضمن القوات الخاصة، لأدركنا على الفور أن هذه الشركات ليست فى حقيقة الأمر - سوى انبثاق مباشر أو امتداد طبيعى لجهاز المخابرات الأمريكية، وإن بدت فى أعين الكثيرين مستقلة عنه..

ولقد لجأت الإدارة الأمريكية - إلى هكذا حيلة - لكى تضمن لنفسها عدم التورط فى الحالات التى يكون فيها التدخل الدبلوماسى مثيرا للقلائل - إذ تكتفى بأن تدفع بشركائها الخصوصيين لكى يتولوا الترتيبات اللازمة بدلا من الحكومة. على أن يتولى البنتاجون نفسه أمر متابعة سير العمليات عبر خلية تعاون سرية.

وعلى أية حال فهذا المنهج فى تنفيذ توجهات السياسة الخارجية الأمريكية لم يعد سرا، فيذكر أحد الجنرالات الذى يدير واحدة من هذه الشركات - التى ليست فى الأصل سوى وحدة عسكرية أمريكية خاصة - أن عدد الجنود الذين يعملون معه يبلغ٤٧ ألف جندي، ومهمتهم الحقيقية هى حماية المصالح الاقتصادية للشركات الأمريكية الكبرى فى العالم، أما المهمة المعلنة فهى حفظ السلام فى المناطق غير المستقرة سياسيا!

ويذكر نفس الجنرال أن شركته قامت بتدريب العاملين فى السفرات الأمريكية فى عدد من بلدان أفريقيا مثل السودان، ونيبيريا، والكونغو على نشر وإذاعة المعلومات التى تفيد التوجهات الأمريكية فى القارة السوداء خصوصا فى ضوء اشتداد حدة المنافسة الأوروبية - الأمريكية فى مناطق بعينها هناك..

ويؤكد خبير استراتيجى أوروبى هو ريشار لابيفير فى كتاب له بعنوان: دولارات الرعب أن هذه الشركة المشار إليها وتدعي(سوكوم) لعبت دورا مهما فى إدارة الصراع فى منطقة البحيرات العظمى، وقامت فى عام١٩٩٦ بالتدخل فى نحو١٤٠ دولة بدعوى أنها تقوم بمهام إنسانية فى الصومال، والسودان، ورواندا، والكونغو الديمقراطية، أو بحجة أنها تزيل ألغام الحروب الأهلية التى جرت فى أنجولا وموزمبيق، وإريتريا.

وفى رواندا قامت الشركة نفسها بتدريب ضباط الرئيس لوران كابيلا.. بينما قامت شركة أخرى فى عام١٩٩٥ تحت ستار التدخل الإنساني(إزالة الألغام) - بمهام عسكرية خطيرة فى رواندا، ونفذت بالفعل عمليات مباشرة عندما سلمت دبابات ومتفجرات للقوات المتحاربة داخل رواندا، دون أن تأبه بقرارات مجلس الأمن التى تقضى بحظر تسليح هذه المنطقة.

الذراع الطولى لأمريكا :

والغريب أن البنتاجون الأمريكى علق على هذه الواقعة مشيرا إلى أنه لا علاقة له بهذا الشأن والذى كان أعطى موافقته على ذلك خلال عملية التسليح التى قامت بها احدى الشركات على حسابها الخاص.. لكن الثابت عمليا أن البنتاجون هو الذى خطط للعملية بكاملها فى الخفاء وترك أمر تنفيذها لإحدى الشركات الخاصة التى تعمل بتوجيهاته، وان بدت أمام الآخرين إنها شركة خاصة لا تحكمها سوى مصلحتها ومنطق الربح.

.. ولكى تدور أحداث يوجوسلافيا السابقة فى الاتجاه الذى يخدم المصالح الأمريكية كان لابد أن تصل ذراع السياسة الخارجية إلى هناك عبر شركات أخري، يصف أحد المحللين إحداها بأنها تضم نحو ٢٠٠ خبير من أفضل الخبراء العسكريين فى العالم، ولقد كانت مهمة هذه الشركات الخاصة(فى عام١٩٩٥) هى مساعدة الكروات فى الحرب الأهلية الدائرة فى يوجوسلافيا(تقديم خبراتها - بلا حدود - إلى الجيش الكرواتي)، الذى استطاع - بسبب هذا الدعم - أن يقوم بسلسلة من الدفاعات المنتصرة التى كان من شأنها، أن أحرقت عشرات القرى الصربية، وتم اغتصاب وقتل المئات من المدنيين، وتهجير أكثر من ١٦٠ ألف شخص.

اللافت للنظر - حسبما يروى الخبير الأوروبى أن الحكومة البوسنية فى ذلك الوقت - طلبت المعونة من إحدى هذه الشركات الأمريكية الخاصة فى بداية عام١٩٩٦،..

وهكذا أصبح للأمريكان اليد الطولى فى منطقة البلقان عبر دعمهم للأطراف المتنازعة فى يوجوسلافيا السابقة.. لكن المذهل فى الأمر أن برنامج تطوير وتدريب أفراد احدى هذه الشركات قد بلغ فى إحدى الدورات حوالي٤٠٠ مليون دولار، تكفلت بها دول أخرى غير أمريكا مثل بروني، وماليزيا، وبعض دول الشرق الأوسط!

ويرصد المحللون فى هذا الإطار ـ أنشطة شركات أخرى، يأخذ بعضها من مكافحة الإرهاب، والمخدرات ستارا بينما هى ـ فى حقيقة الأمر ـ أداة مباشرة لتنفيذ السياسات الأمريكية فى مناطق العالم المختلفة.. والخطير فى الأمر أن إحدى هذه الشركات تتولى أمر تدريب قوات الحرس الوطنى فى بعض الدول ـ وأن أكثر من ٧٥ ألفا من أفرادها يندسون داخل الإدارات والمؤسسات المختلفة وفى المواقع الإستراتيجية بحجة معرفة كل شيء من أجل حماية النظم السياسية الحاكمة.. والحقيقة أنهم يعرفون كل شيء من أجل تكريس الهيمنة وتنفيذ مخططات صناع السياسة الخارجية الأمريكية.

ولبلوغ هذه الغاية أصبحت الجمعيات الأهلية حقلا خصبا لألاعيب سياسية كثيرة، يديرها البنتاجون الأمريكى بذكاء شديد فى إطار منهجه الخاص بخصخصة السياسة الخارجية الأمريكية، فالأهداف المعلنة لهذه الجمعيات تبقى دائما ذات طابع إنساني، لكن الأهداف الخفية هى خدمة الطموح الأمريكى الخاص بضمان تفوق الولايات المتحدة هذا التفوق الذى يصفه صموئيل هنتنجتون صاحب نظرية صراع الحضارات الشهير بأنه بات ضرورة ليس من أجل مستوى الحياة، وأمن الأمريكيين فقط، ولكن أيضا من أجل مستقبل الحرية، والديمقراطية، والاقتصاديات المفتوحة والنظام العالمي..

والمثال الصارخ على ذلك حسب كتاب دولارات الرعب هو منظمة تعرف باسم سيفيتاس التى مهدت لها السفارات الأمريكية فى عدد من دول أوروبا وأجرت اتصالات فى ربيع عام ١٩٩٧ مع وزارات التربية فيها بغرض إشراكها فى البرنامج التربوى الموسع الذى تقوم به هذه المنظمة بينما الهدف الحقيقى هو الترويج لفكرة الديمقراطية على الطريقة الأمريكية.. وكان شيئا مشابها لذلك قد جرى فى عام ١٩٩٥، عندما بادرت الحكومة الأمريكية بتنظيم منتدى دولى مع فيدرالية المعلمين الأمريكيين، لإيجاد شبكة عالمية هدفها هو زرع السلوكيات الديمقراطية فى النفوس.. ولقد غطت إحدى المؤسسات المالية الأمريكية تكاليف تنقل ٤٥٠

شخصا من جميع أنحاء العالم شاركوا فى هذا المنتدى.. كما مولت مشروعا خاصا بفتح موقع على شبكة الإنترنت بعدة لغات، وجرت لقاءات مكثفة مع مفوضين ولجان عديدة تمثل ثلاثة منتديات أخرى فى بيونس إيرس، وبريتوريا، وإستراسبورج لبناء هياكل إقليمية لهذه المنظمة غير الحكومية..

غطاء التدخل الانساني:

وبذلت الخارجية الأمريكية جهودا حثيثة من أجل أن تكون هذه المنظمة تابعة لمجلس أوروبا على أن يكون مقرها إستراسبورج، ولقد جاء ذلك ـ وهذا أمر مهم لتوضيح مدى العلاقة بين صناع السياسة الخارجية الأمريكية، وبين مثل هذه المنظمات الأهلية ـ عقب لقاء جرى فى واشنطن عام١٩٩٧، وحضره رئيس البنك الدولي، ومدير عام منظمة التربية والعلوم والثقافة(اليونسكو) أما الرئيس الذى تم انتخابه لهذه المنظمة، فلم يكن سوى رئيس فيدرالية المعلمين الأمريكيين!

وكان طبيعيا أن تعمل هذه المنظمة(سيفيتاس) تحت غطاء إنسانى دولى ـ فتقوم بتمويل جريدتين تصدران فى توجو بإفريقيا وتنظم مؤتمرات دولية للقانونيين والتربويين فى أثيوبيا، وتسعى الى نزع فتيل الصراعات الاثنية والعرقية.. وتنظم برنامجا لتأهيل المعلمين فى البوسنة، وتقدم النصائح لوزارة الثقافة فى صربيا وتعد لزيارات متبادلة بين طلبة التربية فى براغ، ومركز التربية المدنية فى كاليفورنيا، وتعقد اتفاقات(توءمة) مع جمعيات أهلية أخرى وجامعات بريطانيا.

.. أما الهدف الوحيد للمنظمة فهو ترويج العولمة الاقتصادية ونشر مفاهيم الليبرالية الأمريكية فى لغتها الأصلية الأنجلوسكسونية.. ولهذا السبب فإن الموقع الخاص بالمنظمة على الإنترنت والذى يعتبر(منتدى) لعقد الصلات بين المعلمين والتربويين فى مختلف القارات، تقتصر رسائله ومعلوماته على المفاهيم الفلسفية للديمقراطية والمواطنة من منظور أمريكي.

بكلمة أخرى، إن هذه المنظمة(سيفيتاس) وغيرها من المنظمات غير الحكومية

ليست إلا أداة دعائية لأنماط التفكير والحياة الأمريكية، ومحاولة غرسها لدى الشعوب الأخرى، لضمان كسب ود وولاء هذه الشعوب ولإحكام السيطرة عليها بالتبعية، وتجنيد هذه المنظمات الأهلية لخدمة التوجهات الأمريكية.. وكل هذه السياسات تأتى من اقتناع تتشبث به الإدارة الأمريكية فى عصرنا الراهن وهى أن التأثير الفكرى يحل بدءا من الآن فصاعدا ـ محل دبلوماسية التسليح أو المدافع وربما لهذا السبب يؤكد ضابط سابق فى جهاز الـC.I.A يدعى روبير ستيل أن الدولة التى تضع تحت تصرف دولة أخرى ثلث إنتاجها الفكرى والثقافى ستحقق لنفسها مكانة أرفع على خريطة السياسة الدولية.

ومن هنا نفهم لماذا تحرص الإدارة الأمريكية على ترويج مفاهيمها فى السياسة والاقتصاد والليبرالية فى الدول الجديدة وفى أوروبا الشرقية.

تبقى نقطة أخيرة فى هذا الشأن تتعلق بقضايا حقوق الإنسان التى لم تتورع السياسة الخارجية الأمريكية عن توظيفها لتحقيق أهدافها.. بمعنى أنها تتخذ منها (ستارا) زاعمة أنها إنما تدافع عن حقوق الأقليات الدينية بينما هى فى حقيقة الأمر لا تفعل ذلك إلا دفاعا عن مصالحها الخاصة، أو مصالح لوبى رجال الأعمال والشركات الأمريكية الكبرى.

ولهذا السبب شرعت جامعة عريقة مثل هارفارد فى الاهتمام أكاديميا بما تسميه بالجغرافية السياسية للاتجاهات الدينية فى العالم وإن كانت تخص المنطقة العربية باهتمام زائد من خلال دراسة الظاهرة الإسلامية بمختلف تياراتها فى العالم العربي..

ويؤكد المحللون أن الحقل الدينى ـ انطلاقا من هذا المنظور ـ أصبح إحدى أولويات المساعدات التى تقدمها السياسة الخارجية الأمريكية بل أنه بات يتقدم على سياسة العقوبات الاقتصادية التى كانت الإدارة الأمريكية قد دأبت على فرضها بالقوة فى الخمسين عاما الماضية(تم استخدام سلاح العقوبات الاقتصادية أكثر من١٠٠ مرة منذ عام١٩٤٥، من بينها٦١ مرة منذ وصول الرئيس بيل كلينتون إلى البيت الأبيض وتضررت منه أكثر من٧٥ دولة تضم نحو ثلثى سكان العالم).

.. ولقد كان محقا هذا الدبلوماسى الأمريكى ـ فى باريس ـ عندما قال فى حديث له تعليقا على اهتمام السياسة الأمريكية بالقضايا الدينية وتوظيف ذلك لتحقيق أهدافها:

إن دفاعًا أمريكيًا ذكيًا عن جمعية بهائية فى إيران هو أكثر فعالية من فرض عقوبات اقتصادية عليها، ولاشك أن هذه العبارة تفسر لنا ـ بجلاء ـ لماذا تساند الولايات المتحدة الإسلام المتطرف(طالبان وبن لادن فى أفغانستان وعمر عبد الرحمن فى مصر والجماعات الإسلامية المسلحة فى الجزائر على سبيل المثال).

ومما دفع الإدارة الأمريكية إلى اللجوء لقضايا الأقليات الدينية أخيرا هو أن سلاح العقوبات الاقتصادية لم يعد مجديا أو على الأقل لم يعد ناجعا مائة فى المائة ـ أولا بسبب معارضة جماعات الضغط، والشركات الكبرى داخل المجتمع الأمريكى ذاته، لأنه يضر بمصالحها خصوصا على المدى الطويل..

وثانيا بسبب رفض الشركاء الأوروبيين تنفيذ قرارات الحظر الأمريكية(المثال المعروف هو قانون داماتو الخاص بحظر الاستثمار فى إيران وليبيا، واتباع أوروبا ما أسمته بسياسة الحوار النقدي).

أما السبب الثالث فهو أن سلاح العقوبات الاقتصادية، قد أثبتت التجربة أنه لا يلحق الضرر سوى بالشعوب، أما النظم والحكومات فتبقى ترفل فى حلل السعادة والبهجة(وما يحدث فى العراق هو أفضل مثال على ذلك).

بكلمة أخيرة.. إن اتجاه السياسة الأمريكية إلى خصخصة وكالاتها وأجهزتها المختلفة لتنفيذ مخططاتها وتكريس هيمنتها دون مساءلة قانونية أو دستورية بات أحد خياراتها الرابحة فى عصرنا الراهن.. ومن ثم بات من الفطنة أن نتوخى الحذر عندما نتعامل مع هذه الشركات التى قد تصنع غطاء إنسانيا واجتماعيا فى حين إنها ـ حتى النخاع سياسة موجهة.

"مطرقة" أمريكا و"سندان" أوروبا

المطلوب منا - فى المنطقة العربية والعالم - أن نصدق أن سوريا هى الحشرة السوداء، لأنها لم تضبط حدودها بما يحول دون منع تسرب المسلحين المتطرفين إلى العراق، ولأنها المسؤولة عن تشدد أهل السنة بشأن الدستور، وضالعة بشكل ما فى حادث اغتيال الحريري، ومتسترة على تسليح حزب الله فى لبنان، ومؤازرة - قلبا وقالبا - لخروج إيران على الشرعية الدولية بخصوص ملفها النووي.. وهكذا حقت عليها اللعنة، وليس من حق أحد أن يعترض، أو يناقش هذه الاتهامات التى قد لا يكون نصيبها من الصحة أكثر من نصيب اتهام العراق بامتلاك أسلحة دمار شامل.. تلك التهمة التى أجبر العالم على نسيانها مع أشياء أخرى كثيرة!.

المؤلم أن سوريا لا يريد أن يسمعها أحد، برغم أن صوتها يصرخ، مؤكدا أنها بذلت جميع الجهود لحماية الحدود مع العراق، وأنها نفذت كل ما يتعلق بها فى القرار رقم١٥٥٩ ولم تتردد فى التعاون مع لجنة التحقيق الدولية وقدمت التسهيلات لجلاء الحقيقة فى جريمة اغتيال الحريري.

وهذا معناه أننا أمام سيناريو آخر تم تدبيجه بإحكام، لوضع سوريا فى قفص الاتهام.

وكان البعض يظن - وأنا منهم - أن فرنسا الزعيمة السياسية للاتحاد الأوروبى لن تترك سوريا لقمة سائغة بين أنياب الوحش الأمريكي، نظرا للعلاقة الحميمة التى كانت تربط الرئيس السورى الراحل حافظ الأسد بالرئيس الفرنسى شيراك، ناهيك عن أن بلاد الشام - بشكل عام - هى معقل الفرانكفونية فى المشرق العربي.. وثمة أواصر ثقافية ووجدانية تربط الشوام بفرنسا منذ القدم.

ونذكر جميعا أن عمليات التغيير والتبديل التى شهدها النظامان السورى واللبنانى فى السنوات الماضية، كانت تعلم فرنسا تفاصيلها ومنها مشروع الإصلاح الذى تبناه الرئيس بشار الأسد منذ توليه مقاليد السلطة خلفا لوالده.. بل نذكر جميعا الزيارة التاريخية التى قام بها بشار الأسد إلى باريس(قبيل وفاة والده) واحتفى به الرئيس شيراك حفاوة خاصة إلى حد جعل بعض الصحف تتحدث ـ آنذاك ـ عن أن بشار الأسد أُعلن رئيسا لسوريا من قصر الإليزيه.

هذه المعطيات ذاتها هى التى تبرر دهشتنا ـ ودهشة الآخرين ـ من انقلاب الموقف الفرنسى من التأييد إلى الهجوم.. وكان نفر من المراقبين قد أسقط فى يديه عندما اعترف الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش ـ فى حديث لصحيفة لوفيجارو الفرنسية ـ أن الرئيس شيراك هو الذى خطط لاستصدار القرار رقم١٥٥٩ عن مجلس الأمن والقاضى بانسحاب القوات السورية من لبنان.

إذن ماذا حدث ـ على وجه الدقة ـ لكى تنتقل فرنسا من مقعد الصديق إلى المقعد الآخر؟! يتردد أن هناك جملة من الأسباب تقف كترسانة وراء هذا الانتقال منها أن سوريا منحت عقد نفط لاستثمار الغاز السوري(بقيمة٧٥٩ مليون دولار) إلى تجمع شركات أمريكية ـ بريطانية ـ كندية، وضربت عرض الحائط بمحاولات الرئيس شيراك الاستئثار بهذا العقد.. مما أحنق الأخير الذى شعر بأن صداقته مع النظام السورى لا معنى لها، خصوصا أن هذا العقد قد تم توقيعه بعد صدور قانون محاسبة سوريا وموافقة الكونجرس الأمريكى عليه!.

السبب الثانى أن سوريا لم تستمع إلى النصائح الآتية إليها من باريس بشأن تخفيف الوطء على لبنان واللبنانيين، وثمة من يتحدث عن شكاوى كثيرة كان أسر بها رفيق الحريرى (رئيس الوزراء اللبنانى الراحل) فى أذن صديقه الشخصى الرئيس شيراك، خصوصا بعد إصرار سوريا على تغيير الدستور، والتمديد للرئيس إميل لحود.

والسبب الثالث هو أن فرنسا استشعرت - بعد هنيهة - رفض سوريا المجمل الإصلاحات التى كانت اقترحتها باريس للأخذ بها فورا فى سوريا.

ونما إلى علم قصر الإليزيه أن السوريين يتعاملون مع الاقتراحات الفرنسية (الإصلاحية) كمرجعية استشارية وليست ملزمة.

وهناك من يضيف سببا رابعا يتعلق بالمعطيات التى أفرزها واقع (ما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وسقوط بغداد في ٩ إبريل ٢٠٠٣) ورغبة فرنسا فى كسب الود الأمريكى فى إطار رسم خريطة جديدة للوفاق الدولى الجديد الذى تخرج فيه فرنسا (وبالتالى أوروبا) من ظلال التهميش، لتقف جنبا إلى جنب مع الولايات المتحدة وتجد لنفسها مقعدا على مائدة صنع القرار الدولي.

ومعلوم أن أمريكا كانت - ولا تزال - فى حاجة إلى غطاء فرانكفونى (فرنسي) عند التعامل مع سوريا ولبنان، كما كانت فى حاجة ماسة إلى غطاء إنجلوفونى عندما تعاملت عسكريا مع العراق. وكان معنى هذا، أن الضوء الأخضر الفرنسى كان المؤشر الضرورى نحو سياسة التصعيد الأمريكية تجاه سوريا.. وإذا وضعنا فى الاعتبار أن واشنطن كانت - ولا تزال - تصر على ضرب الدور الإقليمى السورى سواء فى لبنان أو فى العراق أو فى إيران، لأدركنا آن حشد مزيد من الحلفاء للضغط على سوريا هو سياسة أمريكية حاكمة فى هذا المجال.

وإذا أضفنا إلى ذلك جملة الضغوط السياسية والإعلامية التى تمارسها واشنطن على سوريا، لإظهارها فى ثوب من يقف ضد نشر الديمقراطية فى الشرق الأوسط، لوجدنا أنفسنا أمام حقيقة لا تقبل الجدل وهى أن سوريا بالفعل تقف فى مهب الريح وحدها.. صحيح أن أوساطا فرنسية تتحدث عن أن باريس - وإن كانت ضالعة فى التخطيط لتقزيم الدور السورى فى المنطقة - إلا أنها تضع تحفظاتها على رغبة أمريكا فى تغيير النظام السوري.. وتطرح - فى الوقت نفسه - رؤية أخرى هى تغيير سياسة النظام فقط فى سوريا.. وليس خافيا أن الفارق جوهرى بين تغيير النظام وتغيير سياسة النظام.

الثابت أن واشنطن تواصل تصعيدها تجاه سوريا، وتحذر من ازدياد دوائر العزلة، وإفساح المجال أمام خيارات كثيرة ليس مستبعدا منها الخيار العسكري.. كل ذلك يجرى وسط أجواء من الافتراءات والأكاذيب التى أكدت أحداث أفغانستان والعراق، أن لواشنطن فيها باعا كبيرا.

وقديما طالبت واشنطن تفتيش قصور صدام حسين بحثا عن أسلحة الدمار الشامل(المزعومة).. واليوم تطالب باستجواب مسؤولين سوريين كانت لهم صلات(من نوع ما) بالشأن الأمنى والسياسى اللبناني.. وإذا علمنا أن الرئيس بشار الأسد كان(قبل وصوله إلى مقعد الرئاسة فى دمشق) مسؤولا عن الملف اللبنانى فى السياسة السورية، لأدركنا خطورة ما يمكن أن يحدث فى ضوء إصرار لجنة ميليس على الاستماع إلى أقوال من تظن أنهم مفيدون فى قضية اغتيال رفيق الحريري.

للإنصاف يجب أن نذكر أن سوريا تحرص على عدم الاصطدام بالرغبات الأمريكية ولا تتردد فى تقديم ما تطلبه لجنة التحقيق الدولية من مساعدات، استجابة للفقرة السابقة من القرار١٥٥٩ الذى يطلب من جميع الدول التعاون، إلا أنها تصر على اعتبار المسؤولين السوريين(الذين يطلب ميليس الاستماع إليهم) شهودا وليس مشتبها بهم.

- البعض - وأنا منهم - يضع يده على قلبه خوفا من المجهول القادم.. فقديما قرأت سوريا قانون محاسبة سوريا قراءة غير دقيقة، ورأت أنه قانون أمريكى ليس له قوة سياسية..(مع أن قوته السياسية طاغية وحادة وباترة!).. واليوم ما أخشاه - بحق - هو أن يتسع قفص الاتهام ليطال ليس فقط مسؤولين أمنيين وسياسيين سوريين، ولكن ليطال سوريا كلها.. ومما يضاعف قلقى أن فرنسا(وأوروبا) قد باعت سوريا لمصلحة التحالف الأطلسى الذى بشرتنا به كوندوليزا رايس فى أول زيارة لها بعد توليها حقيبة الخارجية الأمريكية وقالت: إنها قد فتحت صفحة جديدة خالية من الثقوب مع أوروبا.

ومما يزيد الأمر صعوبة أن ثمة وفاقًا غير مسبوق تم إبرامه بين الولايات المتحدة وأوروبا (والمجتمع الدولي) بشأن إرغام سوريا على الإذعان والطاعة العمياء لما تقرره الأمم المتحدة، والمؤلم في الأمر أن فرنسا التى كانت قوة مساندة للنظام السورى طوال الأحقاب الزمنية السابقة، قدمت سوريا قربانًا لتحالف استراتيجى من نوع خاص مع أمريكا، وهو ما أضعف سوريا كثيرًا، وجعلها قاب قوسين أو أدنى من قفص الاتهام، فبعد الاجتماع التشاورى الذى استمع فيه مجلس الأمن لشروحات ميليس اجتمع المجلس ثانية على مستوى وزارى لبحث التقرير وما يقدمه من طروحات بشأن العقاب الأمثل الذى يقع على سوريا جراء ما اقترفت من آثام.

وليس بوسع أحد إنكار أن مشاهد مجلس الأمن (تشاورًا واستماعًا) التى تجرى فى هذه الأيام تذكرنا بمشاهد مماثلة قبل نحو عامين عندما كان الحديث

متواترًا فى ذلك الوقت حول تقرير هانز بليكس، وتقرير كولين باول، ودفاع وزير خارجية فرنسا الذى كان مشبعًا ببلاغيات لغوية غير مألوفة.

على أية حال قد لا نستطيع أن نقول ما أشبه ليلة سوريا ببارحة العراق اللهم إلا فى الشكل الإجرائي، وجملة الاتهامات التى تدين سوريا بالتقصير وعدم الاستجابة للإدارة الدولية، لكن هذا التماثل فى المواقف لا ينطبق على ردود فعل الدول الكبرى خصوصًا فرنسا التى كانت تقف على طرفى نقيض مع الولايات المتحدة إبان احتدام الأزمة العراقية (قبيل الاحتلال الأمريكي) بينما هي- فى حالة سوريا اليوم- تقف جنبًا إلى جنب مع الولايات المتحدة، بل تدافع باستماتة- بلغت حد التهديد- عن الأجندة الأمريكية.

وبحسب "لوموند ديبلوماتيك" الفرنسية فإن تجريم سوريا دوليًا بات أمرًا وشيكًا خصوصًا بعد اتفاق الأجندتين الفرنسية والأمريكية، فبعد أن كان هناك خلاف بين الدولتين حول مستقبل سوريا، وهل سيتم تغيير النظام (بحسب المطلب

الأمريكي) أم الاكتفاء بتغيير رأس النظام فقط (بحسب المطلب الفرنسي) فإن لغة التشديد القصوى هى القاسم المشترك حاليًا ليس بين أمريكا وفرنسا، ولكن أيضًا بين عدد من الدول الكبرى ذات التأثير داخل مجلس الأمن.

المؤلم أن سوريا -حسبما يبدو- قد استهانت بهذا التصعيد الذى واجهته منذ سنوات، وتحديدًا منذ إصدار الكونجرس الأمريكى قراره الشهير بمحاسبة سوريا وتعاملت مع الموقف وكأنه مجرد سحابة صيف، وربما لم يكن فى خلدها أن الأمر سيصبح على الأقل بهذه الدرجة من المباشرة، والرسوخ، وليس خافيًا أن اختفاء رفيق الحريرى (رئيس الوزراء اللبنانى الأسبق) بهذه الصورة التراجيدية المحزنة كان بمثابة الشعرة التى قصمت ظهر البعير السورى الذى وجد نفسه بين عشية وضحاها (وحيدًا) يصارع (أهوال) ما قدمت يداه.

والثابت أن فرنسا -فى معرض تبرير انقلابها على سوريا على الأقل- كانت قد أرسلت أكثر من إشارة إلى النظام السورى كى يعيد حساباته منذ اللحظة التى قرر فيها "مسألة المد" المشؤومة للرئيس اللبنانى إميل لحود، لكن وبحسب مصادر فرنسية فإن رجال الحكم فى سوريا لم يعيروا هذه الإشارات أدنى اهتمام، ناهيك عن شعور فرنسا بالخذلان من صديق فرانكفونى قديم (سوريا) عندما وافقت الحكومة السورية على إبرام عقود نفطية مع شركات أمريكية وكندية وأهملت المطلب الفرنسى فى هذا المجال.

على أية حال فإن ما تعيشه سوريا اليوم هو- فى جانب منه- نتيجة طبيعية لجملة من السياسات الأحادية التى اتخذتها القيادة السورية فى الأعوام القليلة الماضية.

وغنى عن البيان أن قائمة الاتهامات الموجهة لسوريا مثل مساندتها لحزب الله (الذى تعتبره إسرائيل الحشرة السوداء فى المشرق العربي)، وعلاقاتها الطيبة مع الدولة المارقة (إيران)، وإيوائها لقادة الإرهاب الفلسطينى (على حد الزعم الأمريكي)، ثم عدم تعاونها فى ضبط الحدود مع العراق ومنع تسلل المسلحين باتجاه

بغداد والموصل وكركوك. كل هذه الاتهامات هى عوامل مساعدة (وليست أصلية) لأن الاتهام الأساسى حسبما حدده تقرير ميليس هو التورط فى اغتيال الحريري، وعدم التعاون مع التحقيق الدولي. يبقى أن نذكر أن سوريا باتت فى خطر حقيقى ويترجم ذلك جملة التحركات الدبلوماسية التى تقوم بها، لكن ظنى أنها تحركات أشبه بمن يحرث فى البحر.

فالنية الأمريكية (منعقدة) منذ فترة لإسقاط سوريا، والدليل على ذلك أن التحرشات بها لم تتوقف لحظة واحدة، ناهيك عن أن قائمة الاتهام تطول وتتمدد عن حق وعن غير حق. والمؤلم أن الساحة العربية منشغلة بما يحدث فى فلسطين، وما يجرى فى العراق حول الوفاق الوطنى والدستور ومحاكمة صدام، وكأن ما يحدث لسوريا اليوم أو غدًا هو أمر مألوف، وهكذا تحول الجميع فى المنطقة العربية إلى مجرد متفرجين على مسرحية يعرف الكثيرون فصولها سلفًا.

إن مأساة العراق لا نزال نلعق أحزانها على الجسد العربى منذ سقوط بغداد فى ٩ إبريل ٢٠٠٣، ولست أظن أن بالجسد العربى مكانًا لضربة رمح جديدة بعد أن أصبح مثخنًا بالجراح.

إنه اختبار عربى للبقية الباقية من تراثيات كانت تتحدث يومًا عن (أمل وألم) عربى واحد، لكنه بلغة الوفاق الدولى الجديد- حسبما يبدو لي- أصبح كاللبن المسكوب لا يفيد الندم عليه.

فضيحة السجون السرية فى أوروبا

يبدو أن السيدة كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة تستحق- عن جدارة- لقب "سيدة المهام الصعبة" لأنها فى جولتها الأوروبية الأخيرة نجحت فى نزع فتيل الأزمة التى اشتعلت فجأة بين الولايات المتحدة، وأوروبا بسبب ما يُعرف بالسجون السرية. وهددت بتعكير صفو أجواء "التفاهم الجديد" الذى ينعم به الطرفان منذ زيارة السيدة كوندى الأولى فى فبراير الماضى وعقب توليها منصبها كوزير الخارجية مباشرة، وأعلنت فى حينها أن صفحة جديدة فى العلاقات الأطلسية (الأمريكية- الأوروبية) قد بدأت، وأنه لم يعد مسموحًا للجانبين أن يقعا- بعد اليوم- فى خلاف أو سوء فهم..

وللإنصاف يجب أن نذكر أن السيدة كونداليزا رايس لم تكن تهدف (من وراء زيارتها الأخيرة) إلى أن تخاطب القادة والحكام فى أوروبا الغربية أو الشرقية وإنما كانت تضع فى حسبانها الرأى العام الأوروبى الذى انزعج كثيرا عندما تحدثت تقارير صحفية عن وجود "سجون سرية" (فى بعض الدول الأوروبية) تابعة لوكالة المخابرات الأمريكية (C.I.A).. ولذلك جاءت تصريحاتها تحمل "تطمينات" و"تهدئات" للشعوب وليس للحكومات.. والسبب كما نقول مصادر أمريكية هو أن هذه المسألة جاءت وفق إجراءات الملاحة الجوية وقوانين المطارات الأوروبية ولم تتم إلا بعد موافقة الحكومات الأوربية على استضافة السجون السرية!

والحق إن "نبرة القوة" التى تحدثت بها السيدة كوندى تكشف عن أن "هذه السجون السرية" لم تكن مفاجأة على نحو ما صورت بعض وسائل الإعلام فى أوروبا وأمريكا، وإنما تم إنشاؤها- منذ البداية- بعد اتفاقات (أشبه بالصفقات) بين واشنطن والعواصم الأوروبية الأخرى.

وإذا علمنا أننا نعيش- بالفعل- أجواء وفاق دولي جديد تتقاسم فيه (أمريكا وأوروبا) النفوذ والسيطرة وتتبادلان الرؤى والتصورات لما ينبغي أن يكون عليه العالم مستقبلًا.. لأدركنا على الفور أن أمريكا لم تتصرف وحدها، وإنما خططت ونفذت (هذه) الرحلات المخابراتية (وتلك) السجون السرية مع شركائها الأوروبية حرفا بحرف وخطوة بخطوة!

صحيح إن البرلمان الأوروبي تحدث عن تشكيل لجنة للتحقيق وهدد مفوض الشؤون الداخلية بالاتحاد الأوروبي فراتكو فراتيني بحرمان الدول الأوروبية التي أقامت سجونا سرية من حق التصويت أو الانضمام إلى الاتحاد، إلا أن درجة الارتياح التي أبداها وزراء خارجية الناتو عقب لقائهم بالسيدة كوندي يجعلنا نؤمن أن الأمر لا يعدو كونه شكلًا من أشكال استيعاب غضبة الرأي العام الأوروبي (وبعض التيارات المعارضة) من جانب بروكسل (عاصمة الاتحاد).. لأن الحال قد تبدل سريعا وأصبحت نار الخلاف بردًا وسلاما إلى حد يثبت صحة ما تردد وهو أن الوزراء الأوروبيين لم يتطرقوا بشكل مباشر إلى الجدل حول السجون السرية، وإنما حرضوا على طي الصفحة، استنادًا إلى تبريرات ساقتها السيدة كوندي تحمل في طياتها "لومًا كبيرا" على قادة أوروبا الذين كان يتعين عليهم- قبل الشكوى من هذه السجون- أن يدركوا أن المعلومات التي انتزعها المحققون من المعتقلين منعت وقوع اعتداءات، وأنقذت حياة أبرياء في أوروبا وأمريكا..

ثم على طريقتها المعهودة في امتصاص الغضبة أضافت تقول: إن أمريكا بلد صديق لدول أوروبا، ونحن حلفاء ليس فقط في الحرب على الإرهاب وإنما أيضا منذ الحرب الباردة..

ولست أشك في أن المباحثات الثنائية التي أجرتها السيدة كوندي مع الأوروبيين تناولت بالقطع المصالح المشتركة ومست بشكل مباشر (نقاط التلاقي والتوافق) في أهداف وطموحات الدول الأوروبية الكبرى.. مثل فرنسا وألمانيا.. ففي اللقاء مع المستشارة الألمانية انجيلا ميركل- مثلًا- تحدثت عن تعاون وثيق (أمريكي- ألماني)

من أجل إرساء الديمقراطية فى أوكرانيا (ودول أخرى فى العالم) وشددت على دور ألمانيا المحورى فى معالجة أزمة البرنامج النووى الإيراني، واستعداد أمريكا للتعاون من أجل الإفراج عن الرهينة الألمانية فى العراق.. وإذا وضعنا فى الاعتبار أن ألمانيا تحلم منذ فترة بأن تقوم بمهمة التنقيب عن البترول فى العراق وأن هذا الحلم لن يتحقق إلا بموافقة الدولة المحتلة للعراق (وهى أمريكا) لأمكننا تصور أن أزمة السجون السرية لن تكون أكثر من سحابة صيف تعود بعدها سماء البلدين (أمريكا- وألمانيا) أكثر صفاء!..

والشيء نفسه يمكن تصوره- جملة وتفصيلًا- مع فرنسا وأسبانيا وباقى الدول التى كانت (رأس حربة) فى المعارضة الدولية لضرب العراق واحتلاله.

الغريب أن كونداليزا رايس قد خرجت من جولتها فى أوروبا بربح وفير حيث أتيح لها أن تدرأ الشبهات التى كانت تحوم حول (أمريكا) فذكرت أن بلدها تتمسك بثلاثة مبادئ هي: احترام القانون الدولي- واحترام سيادة الدول المعنية، وعدم السماح بتعذيب إرهابيين إسلاميين محتملين..

وشرحت أن المواقف المبدئية إزاء المواثيق الإنسانية لا تلغى الالتزامات بمبادئ التحالف الدولى ضد الإرهاب وقالت: لابد من معاقبة أية تجاوزات فى هذه السجون كما حدث فى سجن أبو غريب بالعراق.

وشددت وزيرة الخارجية الأمريكية- فى الوقت ذاته- على أن الأمر (برمته) يتعلق بمكافحة الإرهاب وأن بلدها لم تسع إلا لحماية السكان. وقالت أن ضمان سرية عمل أجهزة المخابرات هو أمر ضرورى لأن هناك سباقًا بين أجهزة المخابرات (من جانب) والشبكات الإرهابية (من جانب آخر) فضلًا عن أن طبيعة عمل المخابرات تقتضى التكتم والسرية المطلقة.

المعروف أن جبهة المعارضة الأوروبية قد بعثت باحتجاجاتها فى كل مكان فأكدت أن "ضمان السرية" التى تتحدث عنه السيدة كوندي- فى براءة- قد يفضى

إلى اعتماد سياسة منظمة بحيث تصبح التجاوزات داخل السجون أمرًا اعتياديًا.. كما أكدت ذلك تجربة سجن أبو غريب فى العراق الذى تبين أن القوات متعددة الجنسية كانت تقوم بالتعذيب وفق سياسة مشتركة (متفق عليها).

ناهيك عن أن معتقل جوانتانا مو فى كوبا يفضح دعاوى حقوق الإنسان التى تلوكها أمريكا ليل نهار..

ومما يضيف ثقوبا أخرى إلى الثوب (الإنساني) الذى كانت تفاخر به أوروبا منذ زمن أن الديمقراطية الأمريكية عندما لم تقبل إقامة سجون سرية- وحظرت فى الوقت ذاته- اعتماد طرق استجواب وحشية داخل أراضيها، قبلت الديمقراطية الأوروبية أن تستقبل المعتقلين وأن تسمح لمحققى الـ C.I.A بممارسة تقنيات استجواب مستحدثة (وخطيرة).. وهكذا تجد أوروبا نفسها بين أمرين أحلاهما مرّ: فهى إما أن تعلن ما لا تبطن، فتقيم السجون السرية، وتسمح بهبوط الطائرات التابعة للمخابرات الأمريكية لنقل الإرهابيين المحتملين، ثم فى الوقت ذاته تغسل يديها من الجرائم التى تقوم بها أمريكا بحق هؤلاء.. وبذلك تظهر كما يقول كونداليزا رايس- فى صورة المنافق السياسي.

وإما أن تعلن رفضها- منذ البداية- لهذه الخطوات فتجد نفسها فى صدام على الأقل مع أوروبا الشرقية التى تعتبر دولها من أكثر الدول استقبالا للإرهابيين المحتملين، وهو أمر- فى حال حدوثه- سوف يصيب عجلة الاتحاد الأوروبى والتوسع شرقا بالبطء وربما التوقف..

وهكذا يبدو أن أوروبا العجوز قد رجحت الأمر الأول لأن (النفاق السياسي) قد يكون أخف وطأة على مستقبل الوحدة الأوروبية من إعلان الخلاف مع بعض دول أوروبا الشرقية مثل بولندا ورومانيا..

يبقى أن نطرح تساؤلًا لا مهرب منه هو التالي:

إذا كان صحيحا- كما ذكرت السيدة كونـدي- أن معظم السجون السرية فى أوروبا قد أغلقت بعد ظهور التقارير الصحفية التى فضحتها، فهل صحيح أن عمليات ترحيل الإرهابيين المحتملين قد اتجهت إلى مراكز اعتقال فى شمال أفريقيا، والشرق الأوسط.. وهل سيكون للرأى العام فى هذه المناطق نفس موقف الرأى العام الأوروبي..؟!

أمريكا: مهندس سايكس بيكو جديد فى الشرق الأوسط

أخيرًا ولعله خلل فى السيكولوجية العربية فنحن نفرح - ونطرب كثيرا - إذا ما ترددت أنباء بين حين وآخر - عن ظهور خلافات بين ضفتى الأطلسى وتحديدا بين أمريكا وأوروبا، وتذهب يبعضنا الظنون فى المنطقة العربية - الى أن العلاقات الأمريكية - الأوروبية تسير فى طريق اللاعودة، وأن حلفاء اليوم سيكونون بالضرورة أعداء الغد.

وقناعتى التى ابنيها على تأمل عميق لما يجرى من أحداث، ومقاربات على ضفتى الأطلسى هى أننا نعانى من قصر نظر مزمن، فضلا عن مرض عضال آخر نعانيه إلى حد الإدمان هو ضمور الذاكرة، وفقدان القدرة على التمييز، وعدم ربط الأحداث بالبيئة السياسية والدولية التى تقع فيها..

.. ونتيجة لذلك يغيب عن بالنا أنه من المستحيل أن تتصادم أوروبا وأمريكا، فالمتفق عليه منذ زمن وتحديدا بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها أنه يجب ألا تحدث مواجهة مسلحة بين الطرفين مع الاحتفاظ بحق كل طرف فى الخلاف والاختلاف ولكن تحت قاعدة الديمقراطية التى تمثل احدى القيم المشتركة التى تجمع الأوروبيين والأمريكيين معا فى خندق واحد يضم إلى جانب الديمقراطية، حرية الرأى وحقوق الإنسان وسيادة القانون.

بمعنى آخر أن الاختلاف وارد بل يكاد يكون مطلوبا، أما ما ليس واردا ولا مطلوبا(بطبيعية الحال) هو التناحر والتصادم إلى حد ينذر بمواجهات عسكرية..

الشيء الثانى الذى يغيب عن بالنا هو أن هناك اتفاقا بين ضفتى الأطلسى على أن دول المنطقة العربية(وبعض الدول الشرق أوسطية) تجسد اليوم صورة تركيا

القديمة، أقصد صورة الرجل المريض وبالتالى فمن الطبيعى أن يسيل اللعاب(طمعا) فى فرض السيطرة.

والحق أنه لا خلاف بين أمريكا وأوروبا حول هذه النقطة تحديدا، اللهم إلا فى بعض التفاصيل فأمريكا لا ترى مناصا من استخدام القوة الغليظة أو الخشنة(فهذا ما يتلاءم معها باعتبارها أكبر قوة فى عالم اليوم)، أما أوروبا فتحبذ استخدام القوة الناعمة.. لكن المستهدف واحد وهو كما أسلفت المنطقة العربية(أرضا وسماء)..

ولست أشك لحظة واحدة فى إننا مقبلون على مرحلة سوف تتكشف فيها تدريجيا تجليات هذا الاتفاق الأطلسى الذى أرست قاعدته من جديد كوندليزا رايس فى جولتها الأولى قبل أيام التى زارت فيها عواصم عربية وشرق أوسطية وأعلنت على الملأ أن الدبلوماسية الأمريكية تعتزم كتابة فصل جديد فى الشراكة الأطلسية ـ لا يكون فيها مجال لاختلاف(أو خلاف) لأنه من غير المعقول أن تتصادم دولة ديمقراطية(مثل أمريكا) مع دول ديمقراطية مثل (الدول الأوروبية).

والثابت(عمليا) أن واشنطن قد استوعبت درس حربها على العراق، ووقفت طويلا أمام(الشقاق) الذى عصف بالشراكة الأطلسية، وجعل دولة فى حجم وقامة فرنسا تقف فى موقع المواجهة ضد أمريكا وتلوح لأول مرة باستخدام حق الفيتو فى مجلس الأمن ضدها.

وهذا(الحال) يقودنى إلى القول إن تداعيات حرب العراق(أطلسيا) لا تقل فى أهميتها عن تداعيات سقوط حائط برلين(دوليا).. فلئن كان الحدث الثانى قد كشف عن أن العالم مقبل على نظام دولى تحكمه الأحادية القطبية، فإن الحدث الأول قد أكد بما لا يدع مجالا للشك أن العلاقات الأطلسية هى بيت الداء (كالمعدة) وبالتالى لابد من إخلائه من كافة العلل والأمراض، حتى تنطلق أمريكا فى تنفيذ مخططاتها التى وضعتها على رأس أجندة الولاية الثانية لبوش.

وإذا علمنا أن زيارة كوندوليزا رايس إلى أوروبا فى أوائل عام ٢٠٠٥ لم تكن

تستهدف غير وضع القاطرة على القضبان لكى تنطلق، لأدركنا على الفور أننا أمام تسويات وتوافقات تشبه إلى حد كبير تسويات وتوافقات سايكس بيكو مع اختلاف فى القوي، والتواريخ وان بقى الهدف ثابتا وهو فرض الهيمنة وخطف ثروات الشعوب..

وضمن هذه الرؤية كان لابد لكونداليزا رايس أن تقوم بتنقية الأجواء الأطلسة (الأمريكية الأوروبية) تمهيدا للقاءات قمة تجمع الرئيس بوش الابن ورؤساء أوروبا لبدء عملية بناء صرح أطلسى يشق عنان السماء.

.. والمعروف إن الملفات الساخنة(آنيا) يتقاذفها الأطلسيون كالكرة بين محطات هي: إيران، والعراق، والصين.. وكان الأوروبيون قد اندهشوا من رغبة استراليا فى المشاركة مع الترويكا الأوروبية (بريطانيا وألمانيا وفرنسا) التى تتفاوض باسم الأمريكيين مع إيران حول برنامج الأخيرة النووى وسبب الدهشة أن هذه الرغبة الاسترالية جاءت فى وقت تتهامس فيه بعض الأوساط الأمريكية مشككة فى نيات الأوروبيين، وتتهمهم (ضمنا) بالمرونة مع إيران. فضلا عن أن رفض واشنطن المشاركة بشكل مباشر جنبا إلى جنب مع الأوروبيين ـ فى المفاوضات مع إيران يثير حيرة الأوروبيين (ولم تنجح زيارة ـ كونداليزا رايس ـ فى أن تقضى على أسباب هذه الحيرة على كل حال!

الملف الثانى مكتظ بالأحداث التى تروى أرض العراق (يوميا) بالدم الساخن.. ويبدو أن الهوة التى كانت تفصل بين أمريكا وأوروبا وتحديدا فرنسا وألمانيا، قد ضاقت وتقلصت.. عندما احترمت واشنطن رغبة باريس وبرلين فى عدم إرسال قوات إلى العراق، واستعداد باريس لتدريب قوات عراقية ولكن خارج الحدود العراقية، والسماح للشركات الفرنسية بأخذ نصيب من عقود الأعمار فى العراق..

.. والمعروف أن باريس كانت قد أبدت قلقها من مخططات أمريكية ترمى إلى

تعميق الهوة بين أوروبا القديمة وأوروبا الجديدة خصوصا أن هذه الأخيرة تربط فى رقبتها(دينا) لأمريكا التى خلصتها من النظم الشيوعية وسمحت لبعضها بالدخول إلى حلف الناتو وهو ما يعنى أن أوروبا الجديدة مشدودة بالجميل والامتنان لواشنطن وهو ما يمثل خطرا على وحدة أوروبا اليوم وغدا

ثم هناك ملف الصين الذى قالت فيه رايس الكلمة الفصل برفضها إقدام أوروبا على رفع الحظر على بيع الأسلحة للصين لأن ذلك يعطى مؤشرات خاطئة حول حقوق الإنسان المتورطة فيها بكين منذ مجزرة ساحة تيان أنمين قبل نحو خمسة عشر عاما، فضلا عن أن رفع هذا الحظر من شأنه أن يحدث تغييرات فى الوضع الاستراتيجى العسكرى فى المنطقة وهو ما سيلقى بظلال على ترتيبات القوة العظمى (أمريكا) بشأن المستقبل فى آسيا والعالم..

* يبقى أن نذكر أن الرهان على الخلافات الأطلسية (الأمريكية - الأوروبية) هو بالضرورة رهان خاسر، لأن أوروبا وأمريكا استوعبتا درس الحرب على العراق، ووجدنا أن الانشغال بجمع الغنائم مهما اختلفت حصص كل طرف عن الأخر - أجدى ألف مرة من إفساح المجال لاستفحال الخلافات وهكذا بات فى حكم المؤكد أن عالم اليوم يتنفس بواكير "وفاق دولى جديد" بين طرفى المعادلة الدولية الكبرى أمريكا وأوروبا..

الفهرس

الموضوع **الصفحة**